الفصل الثالث

الإسلام والغرب

هل الإسلام هو الهدف؟

ثمة ملاحظة هامة تفرض نفسها في بداية هذا البحث. وهي أنه باستثناء الصراع الذي يجري في الهند بين الهندوس والسيخ، والصراع الذي يجري في بريطانيا وإيرلندا بين الكاثوليك والبروتستانت، فإن كل الصراعات الدينية الكبرى في العالم، يشكل الإسلام أحد طرفيها.

هذا يعني أحد أمرين، وتتوقف صحة أي من الأمرين على الزاوية التي ننظر منها إليهما:

● **الأمر الأول**: هو أن غير المسلمين يقولون إن هناك مشكلة ما تتسبب في اضطراب علاقات الإسلام مع الأديان الأخرى. وإن هذه المشكلة تعبر عن نفسها في هذه السلسلة من الصراعات. ولذلك يحاول الباحثون منهم تعريف طبيعة المشكلة ومن ثم تحديد كيفية التعامل مع المسلمين في ضوئها.

● **الأمر الثاني**: هو أن المسلمين يقولون إن الإسلام مستهدف. وإن ثمة حرباً معلنة ضده. وإن الإسلام في دفاعه عن عقيدته، وفي صموده أمام سلسلة الهجمات التي يتعرض لها يجد نفسه في حالة صراع دائم.

بعض الباحثين المسلمين يجدون المشكلة ليست في الإسلام بل في غيره. وهي تكمن تحديداً في عقلية الهيمنة والإخضاع والطمع في ثروات العالم الإسلامي وفي موقعه الاستراتيجي.

إذاً نحن أمام مشكلة معقدة يزيدها تعقيداً وجود تعريفين متناقضين لها. فغير المسلمين يعتقدون بوجود المشكلة في الإسلام. والمسلمون يعتقدون بوجودها في نظرة الآخرين إلى الإسلام. وبالتالي فإن المسلمين يرون أن غير المسلمين يبحثون عن الحل في المكان الخطأ، فيما يعتقد غير المسلمين أن المسلمين عبثاً يبحثون عن الحل خارج الذاتية الإسلامية.

من السهل على أي باحث أن يقدم ألف دليل ودليل على العدوانية الغربية التي تستهدف الإسلام وأهله، قديماً وحديثاً. ولكن لا أعتقد أن اجترار ذلك هو المطلوب اليوم من ثقافتنا الشعبية أنه كلما ألمت مصيبة بمنطقة إسلامية أو حلت بها كارثة، يتوجه إصبع الاتهام تلقائياً نحو الغرب غير المسلم، ونادراً ما يخطئ. ليس الهدف من هذا البحث أن يكون مجرد حركة إصبع في هذا الاتجاه أو جزءاً من هذه الثقافة الشعبية الصحيحة بعفوية إنما الهدف منه هو إضاءة شمعة وسط نفق مظلم يبدو في مرحلة ما بعد الحرب الباردة وانعكاساتها وكأن لا مخرج منه.

يقول الرئيس الأمريكي الأسبق (رتشارد نيكسون) في كتابه الأخير: (اقتناص اللحظة)[1] يحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يكون قوة جغرافية متعصبة ومتراصة. وأن نمو عدد أتباعه، ونمو قوته المالية سوف يفرضان تحدياً رئيسياً. وأن الغرب سوف يضطر لتشكيل حلف جديد مع موسكو من أجل مواجهة عالم إسلامي معاد وعنيف.

إن وجهة النظر هذه، يضيف (نيكسون) تعتبر أن الإسلام والغرب على تضاد. وأن المسلمين ينظرون إلى العالم على أنه يتألف من معسكرين لا يمكن الجمع بينهما، دار

---

(١) ريتشارد نيكسون: اقتناص اللحظة، ترجمة عبد الحق عبد المولى، دار التراث العربي القاهرة ص٨٣.

الإسلام، ودار الحرب. ويعكس (نيكسون) في كتابه صورة بشعة عن العالم الإسلامي عندما يقول: «إن معظم الأمريكيين ينظرون نظرة موحدة إلى المسلمين على أنهم غير متحضرين، وَسِخين، برابرة، غير عقلانيين، لا يسترعون انتباهنا إلا لأن الحظ حالف بعض قادتهم وأصبحوا حكاماً على مناطق تحتوي على ثلثي الاحتياطي العالمي المعروف من النفط»[1].

ولعل معظم قادة الغرب يشاركون (نيكسون) وجهة نظره التي يقول فيها: «إنه يوجد في العالم الإسلامي عاملان اثنان مشتركان فقط: هما الدين الإسلامي والاضطراب السياسي»[2].

بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفييتي وانحلال حلف وارسو، جرى تصعيد متعمد للعدوانية الغربية ضد الإسلام، حتى أن مدير معهد بروكنغز في واشنطن Brooking Institution هو هيلموت سوننفيل Helmunt Sonnenfeldt يقول: «إن ملف شمالي الأطلسي سوف يعيش، وأن الغرب سيبقى مجموعة دول لها قيم أساسية مشتركة. وستبقى هذه المجموعة متماسكة معاً من خلال الشعور بخطر خارجي: الموقف من الفوضى أو التطرف الإسلامي.

وفي ربيع ١٩٩٠م ألقى (هنري كيسنجر) وزير الخارجية الأمريكي الأسبق خطاباً أمام المؤتمر السنوي لغرفة التجارة الدولية، قال فيه: إن الجبهة الجديدة التي على الغرب مواجهتها هي العالم العربي الإسلامي، باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب. وإن حلف الأطلسي باق، رغم انخفاض التوتر بين الشرق والغرب في أوروبا، ذلك

---

(١) اقتناص اللحظة. ريتشارد نيكسون - ترجمة عبد الحق عبد المولى ص١٢٣.

(٢) المصدر السابق ص٢٣٣.

أن أكثر الأخطار المهددة للغرب في السنوات القادمة آتية من خارج أوروبا. وفي نهاية التسعينيات فإن أخطر التحديات للغرب ستأتي من ناحيتي الجنوب (أي المغرب العربي) والشرق الأوسط.

وهو ما أكده فيما بعد الأمين العام لحلف شمال الأطلسي (ويلي كلايس) الذي وصف الأصولية الإسلامية في خطاب رسمي له بأنها «أعظم خطر راهن يواجه الحلف»[1].

ولقد بلغ الأمر بمجلة الأيكونوميست البريطانية المعروفة برصانتها أن نشرت على الغلاف موضوعاً بعنوان: «الإسلام الإيديولوجية البربرية المعادية للغرب». وجاء في دراسة أخرى نشرتها مجلة ألمانية متخصصة في الدراسات الاستراتيجية:

الواقع أن الأحاسيس المعادية للعرب وللمسلمين تجعل من هذه الصورة الجديدة للعدو، المخطط لها أسرع نجاحاً وأكثر قدرة في الحصول على الإجماع، يبدو ذلك واضحاً من إسراع مجموعات من حزب الخضر بألمانيا عند حصول «أزمة الكويت» للحديث عن صراع بين الإسلام والغرب، بل بين الإسلام والتنوير أو التحرير. وطالب آخرون من حزب الخضر الألمان ببوليس دولي لحماية البيئة من العرب.

ومما له دلالاته أنه لم يعد هناك نقاش كثير حول حق الغرب في التدخل؛ بل إن ما تجري مناقشته الآن هو كيف يمكن الوصول لتحقيق أهداف الغرب بأقل قدر ممكن من الخسائر. ومن الطبيعي في ظل هذا الجو السائد أن يقبل التصرف الأمريكي المعتمد على القوة العسكرية المتفوقة، والمتجاهل للأمم المتحدة مع الادعاء بالاعتماد على قراراتها ما دام الأمر المطروح هو العقلانية أو الإسلام! بل إن التدخل الأمريكي يصبح مع الوقت حملة «تبشيرية» من أجل الحضارة والحرية.

---

(١) صحيفة واشنطن بوست - العدد ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٥.

إن الشواهد على هذا الموقف كثيرة، غير أن ما يجري على الأرض ربما يكون أكثر إقناعاً، من حرب الخليج حتى حرب الإبادة التي يتعرض لها المسلمون في جمهورية الشيشان على يد الروس. وفي البوسنة والهرسك على يد الصرب، مروراً بالمجازر التي تجري في الهند وخاصة في كشمير. وفي نيبال حيث يهجر المسلمون على قاعدة التطهير الديني، وحتى في سريلانكا في إطار الصراع المحتدم بين التاميل والسنهاليين. وقد سبق لرئيسة الحكومة البريطانية السابقة السيدة (مرغريت تاتشر) أن حذرت من أن استمرار المجازر في البوسنة دون مبادرة أوربية، أو مبادرة أمريكية - أوربية مشتركة، من شأنه أن يلهب حماس المسلمين في العالم وأن يصب الزيت على نار الأصولية الإسلامية، لذلك فإن الهدف كما يبدو من المساعدات الإنسانية (مواد غذائية وطبية) التي كانت ترسل إلى سراييفو هو امتصاص النقمة الإسلامية في العالم أكثر من مساعدة البوسنيين على الصمود في وجه الصربية البربرية المتوحشة.

يقول المؤرخ التركي (كيريانجيل) في دراسة له أنه منذ عام ١٧٩٨م (عندما غزا نابليون مصر). حتى عام ١٩٣٥م (عندما أطاح انقلاب عسكري أعدته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بنظام حكم محمد مصدق في إيران) تعرض العالم الإسلامي إلى ٣١٨ هجوم عدواني من الغرب وبين الفترة الممتدة من عام ١٩٥٦ من (العدوان الثلاثي على مصر) حتى عام ١٩٩٤م (العدوان الروسي على جمهورية الشيشان) أحصيت خمسة عشر هجوماً عدوانياً هي:

١- العدوان الفرنسي - الإسرائيلي - البريطاني على مصر ١٩٥٦م.

٢- نزول قوات المارينز الأمريكية في لبنان إثر الثورة التي أطاحت بالحكم الملكي في العراق ١٩٥٨م.

٣- الحرب بين الهند والباكستان ١٩٦٠م.

٤- العدوان الاحتلالي الإسرائيلي على مصر وسورية والأردن ١٩٦٧م.

٥- الحرب بين الهند والباكستان ١٩٧٢م.

٦- حرب رمضان العربية الإسرائيلية ١٩٧٣م.

٧- الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان ١٩٧٨م.

٨- الاجتياح السوفييتي لأفغانستان ١٩٧٩م.

٩- عملية لوط العسكرية الأمريكية ضد إيران ١٩٨٠م.

١٠- الهجوم الإسرائيلي على المفاعل النووي العراقي ١٩٨١م.

١١- الاجتياح الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢م.

١٢- القصف الأمريكي على ليبيا ١٩٨٦م.

١٣- حرب الخليج ١٩٩١م.

١٤- العدوان الصربي (والكرواتي) على مسلمي البوسنة والهرسك ١٩٩٢-١٩٩٥م.

١٥- العدوان الروسي على جمهورية الشيشان في القوقاز ١٩٩٥.

سبق الهجوم الأوربي المباشر على العالم الإسلامي فرض حصار على الوطن العربي. كانت حركة الكشف الجغرافي قد بلغت ذروتها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. فزرعت الدول الأوربية مستعمرات لها في آسيا وإفريقيا (بالإضافة إلى العالم الجديد في أمريكا الشمالية والجنوبية). ومن أجل المحافظة على هذه المستعمرات، كان لا بد من السيطرة على الطرق المؤدية إليها بحراً وبراً. غير أن الوطن العربي كان يشكل بموقعه سداً في وجه هذا التوسع.

يتمثل الحصار باستيلاء البرتغال على باب المندب وسيطرتها على الملاحة في البحر الأحمر، ومن ثم تحالفها مع الحبشة ضد العرب. حتى أنه تم التوصل بين الدولتين على تحويل روافد نحر النيل لقطع المياه عن مصر (وهو ما حاولت أن تفعله إسرائيل مع الحبشة أيضاً).

كذلك احتل البرتغاليون هرمز وسيطروا على مدخل الخليج العربي.

إن سيطرة البرتغاليين على باب المندب وعلى مضيق هرمز، أقفلت المداخل البحرية الجنوبية للوطن العربي. حتى أن البرتغاليين حاولوا احتلال جدة للانطلاق في الهجوم على الحجاز وقد تمكنت عشرون سفينة حربية برتغالية من التغلب في البحر الأحمر على المماليك في معركة دبو في عام ١٥٠٧م.

ويذكر الباحث البريطاني (رونالد وايدنر) أنه ليس واضحاً سبب الدمار الذي ألحقه فاسكو ديغاما بالمدن الساحلية في شرق إفريقيا. هل كانت الحماسة الدينية هي التي دفعته إلى ذلك، أم الخوف من قوة العرب والعمل على كسر شوكتهم وقتل روحهم المعنوية؟

في الوقت نفسه كانت تقوم حركة مماثلة لإقفال الطرق البحرية الشمالية في البحر الأبيض المتوسط. فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس وبدعم من البرتغاليين كانوا يمارسون القرصنة ضد البحرية التجارية العربية بهدف إقفال مرافئ مصر وسورية ولبنان وفلسطين.

والواقع أنه منذ سقوط غرناطة في العام ١٤٩٢م بدأ الإسبان يهاجمون شمال أفريقيا. ففي العام ١٥٤١م قام (شارلكان) - شارل الخامس - ملك إسبانيا بحملة صليبية لاحتلال الجزائر. رافقه في تلك الحملة شقيقا البابا، وقوات من إيطاليا وفرنسا وألمانيا.

غير أن تلك الحملة باءت بالفشل الذريع. فقام بحملة ثانية لاحتلال تونس وأقام فيها قاعدة تمركزت فيها قوات فرسان القديس يوحنا للسيطرة على الطريق البحري الذي يربط شرق المتوسط بغربه من خلال مضيق صقلية. وفي العام ١٥١٠ احتل الإسبان ليبيا وسلموها للفرسان (إلى أن حرر العثمانيون تونس وليبيا في العام ١٥٧٤م).

ويقول المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي): «لم يقتصر الأمر على عزل العالم الإسلامي

ولكن أمكن ضرب الحصار حوله تماماً، ففي أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر وضع الطوق حول رقبة الفريسة»![1]

أما في المغرب الأقصى فقام حكم الأسرة السعدية في العام ١٥١٧م على أساس واحد هو «مجاهدة البرتغاليين». وقد تمكنت هذه الأسرة من تحرير معظم شاطئ الأطلسي من وجودهم بدءاً بأغادير. وتعتبر معركة وادي المخازن إلى الشمال الغربي من فاس في صيف العام ١٥٧٨م المعركة الفصل التي انهارت بعدها الدولة البرتغالية ولم تقم لها قائمة منذ ذلك التاريخ. فقد قتل في تلك المعركة ملك البرتغال (دون سيبستيان). وغرق الملك (محمد المتوكل)، ومات شقيقه (عبد الملك).

توجت عملية الحصار الأوربي للوطن العربي بمؤتمر فيينا في العام ١٨١٥م الذي عقدته الدول الأوروبية تحت شعار التضامن ضد القرصنة العربية في المتوسط. في هذا المؤتمر طالبت بريطانيا بعمل مشترك ضد البحرية العربية، وكان هدف بريطانيا واضحاً وهو إلغاء الدور البحري العربي لتتمكن بريطانيا من أن تفرض سيادتها على المتوسط. أما في الخليج وبحر العرب فكان لمسقط وحدها ثاني أكبر أسطول بحري - بعد الأسطول البريطاني - أما الأسطول الفرنسي فكان قد تحطم معظمه في معركة أبو قير في مصر.

أدى تقسيم سلطنة عمان وتفجير الصراعات مع إيران إلى إفقارها وإضعافها، حتى تمكنت بريطانيا في العام ١٨٠٠م من أن تفرض عليها معاهدة تقضي بتعيين وكيل سياسي بريطاني في مسقط. ومن هناك بدأ التوسع البريطاني للسيطرة على كل الخليج العربي. (أليس هذا ما يحدث الآن مع الولايات المتحدة؟).

فمنذ العام ١٨٤٣م فرضت بريطانيا على مشيخات ساحل عمان - أي دول مجلس

---

(١) أرنولد توينبي: تاريخ البشرية، ص ١٨٣.

التعاون اليوم - معاهدة (مدتها عشر سنوات) تحرم عليها أي نشاط مسلح تحت طائلة العقوبة. حتى التحالفات الثنائية (بين عجمان وأم القيوين) منعتها بريطانيا، ومنعت انضمام المشيخات إلى السعودية، ووقفت ضد التقدم المصري في العام ١٨٤٢م نحو الساحل.

منعت معاهدة ١٨٥٣م التي فرضتها بريطانيا، مشيخات الساحل من إقامة أي علاقة مع أي دولة غير بريطانيا. وتطورت هذه المعاهدة في العام ١٩٠٢م إلى حظر استيراد الأسلحة. وبعد ذلك (في العام ١٩٢٢م) إلى حصر منح امتيازات التنقيب عن النفط واستثماره ببريطانيا وحدها أو بمن تعينه.

الواقع أنه بعد مؤتمر فيينا مباشرة قامت فرنسا بغزو الجزائر في العام ١٨١٦م ثم قامت بريطانيا بغزو ثان في نفس العام (حملة الجنرال اكسماوت)، إلى أن احتلت فرنسا الجزائر في العام ١٨٣٠م بحجة الرد على قيام (الداي حسين) بصفع القنصل الفرنسي بالمروحة!!

في العام ١٨٧٨م عقد مؤتمر برلين الذي أقرت فيه بريطانيا وألمانيا باحتلال فرنسا لتونس رداً على حادث أمني وقع على الحدود التونسية الجزائرية.. وتحت هذه «المظلة الدولية»أخمدت القوات الفرنسية ثورة القيروان وفرضت على تونس معاهدة المرسى للعام ١٨٨٣م.

أما في مصر فقد تحول «صندوق الدَّين» الذي شكل من مندوبي الدول الدائنة لمصر إلى مجلس وصاية أوروبية منذ العام ١٨٧٥م. حتى أن الحكومة المصرية كانت برئاسة (نوبار) - الأرمني - وكان وزير المالية إنكليزيا، ووزير الأشغال العامة فرنسياً. ولما اعترض المصريون على ذلك وتجاوب الخديوي إسماعيل، حصل الوزيران الإنكليزي والفرنسي على حق النقض في مجلس الوزراء، وعزل الخديوي وعين ابنه توفيق مكانه.

لقد ضربت دولة محمد علي، سياسياً من خلال المذكرة الدولية المشتركة التي وجهتها الدول الكبرى في ذلك الوقت بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا إلى السلطان العثماني «بعدم عقد أي اتفاق مع محمد علي دون الرجوع إلى هذه الدول مسبقاً»، وضربت عسكرياً من خلال تدخل الأسطول البريطاني وقوات أوروبية أخرى ضد (محمد علي). وفوق ذلك، أثارت الدول الأوروبية القلاقل في وجه الوجود المصري في سورية، فاضطر (إبراهيم باشا) للانسحاب من لبنان وسورية وفلسطين وحتى من الساحل اليمني والجزيرة.. وبدأ توطين اليهود منذ ذلك الوقت في فلسطين.

الصراع الفرنسي - البريطاني زرع البذرة الأولى لشجرة الفتنة في لبنان. كانت فرنسا تؤيد (محمد علي) وكانت بريطانيا تعارضه. وتبعاً لذلك وقف الموارنة في لبنان إلى جانب (إبراهيم باشا)، ووقف الدروز ضده.

هكذا انتقل الصراع الدولي بين فرنسا وبريطانيا إلى لبنان، وأصبح صراعاً محلياً بين الموارنة والدروز. فوقعت فتنة ١٨٤٥ - ١٨٦٠م والتي انتهت بغرس بذرة جديدة لا تزال تنمو وتثمر حتى اليوم، وهي بذرة التدخل الدولي في لبنان.

اتفقت الدول الأوربية مع السلطان العثماني على صيغة للحكم في لبنان تقوم على أساس أن يختار السلطان حاكماً بلقب متصرف يكون مسيحياً كاثوليكياً من رعايا السلطان، ومن خارج لبنان، توافق عليه الدول الأوربية. هذا النظام - المتصرفية - أرسى قاعدة العلاقة بين التدخل الخارجي، وطائفية الرئيس. بل إن النظام الإداري للمتصرفية نص على تشكيل إدارة تابعة للمتصرف تتمثل فيها الطوائف (الموارنة - الدروز - السنة - الشيعة) بنسب متفاوته، فأرسى بذلك قاعدة النظام الطائفي الذي لم يستطع لبنان أن يتخلص منه حتى اليوم، رغم ما نص عليه الدستور السابق في المادة ٩٥، ثم ما نص عليه اتفاق الطائف ١٩٨٩م.

في العام ١٩٠١م ثبتت فرنسا مع إيطاليا اتفاق المقايضة: المغرب مقابل ليبيا. وعقدت مع بريطانيا في العام ١٩٠٤م اتفاق مقايضة آخر: المغرب مقابل مصر. كما عقدة مع إسبانيا في العام نفسه اتفاقاً لتقاسم النفوذ في المغرب، فكانت حصة إسبانيا الريف الشمالي وطرفاية في الجنوب، مقابل فرنسا بقية المغرب.

أما ألمانيا التي لم تمنح أي قطعة من قالب الحلوى العربي، فقد قامت بمبادرة مثيرة. القيصر (ولهلم) وصل فجأة إلى طنجة في العام ١٩٠٥م وضرب رجليه في أرض المغرب معلناً: نحن هنا. استرضاء لألمانيا تنازلت فرنسا عن جزء من مستعمراتها في إفريقيا الاستوائية. وهكذا سحبت ألمانيا شعار معارضة اقتسام المغرب وتراجعت عن مطالبها العلنية بإقرار حق المغرب في تقرير مصيره.

هذا «التناتش» الدولي وما تخلله من صراع، أدى في العام ١٨٨٠م إلى عقد مؤتمر مدريد الذي حضرته ١٣ دولة أوروبية فضلاً عن الولايات المتحدة. وكانت مهمته تنظيم الامتيازات الأوربية في الوطن العربي. ثم عقد مؤتمر الجزيرة في إسبانيا في العام ١٩٠٦م الذي ألغى الامتيازات شكلاً، لكنه فتح الباب أمام فرنسا في العام التالي ١٩٠٧م بغزو شرق المغرب (من الجزائر) ومن ثم احتلال فاس ومكناس في العام ١٩١١م.

بعد ترهل الإمبراطورية العثمانية بدأت الدول الغربية تتقاسم تركة «الرجل المريض» في مشرق العالم العربي ومغربه. قاوم العرب الهجمة الاستعمارية بعدة ثورات. بعد ثورة المهدي (محمد أحمد ابن سيد عبدالله) في السودان وسيطرتها على العاصمة الخرطوم، غزت قوات بريطانية بقيادة (اللورد كتشنر) السودان بقوة قوامها عشرة آلاف جندي كان من بينهم (ونستون تشرشل).

وبعد ثورة الأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر، وثورة (عبد الكريم الخطابي) في

المغرب، وثورة (عمر المختار) في ليبيا، وثورة القيروان في تونس، والثورة العرابية (أحمد عرابي) في مصر، والحركة العربية (الشريف حسين) في الجزيرة العربية، اشتدت قبضة الدول الأوربية وتجاوزت بعض خلافاتها من أجل إحكام سيطرتها.

يشكل الاتفاق البريطاني - الفرنسي (مارك سايكس Mark Sykes عن بريطانيا وجورج بيكو Georges Picot عن فرنسا) في ١٦/ ٥/ ١٩١٦م ذورة التآمر.

تكامل ذلك في ٢/ ١١/ ١٩١٧م بصدور وعد من وزير خارجية بريطانيا بلفور بمنح فلسطين وطناً لليهود وتحويلها إلى وطن قومي لهم.

تتواصل اليوم هذه المسيرة التاريخية الطويلة في كافة الميادين وبوجوه متعددة. وفي كل مرة يلوح في أفق الشرق بريق وعي قومي أو إسلامي، يستنفر الغرب عدوانيته ويتحفز لوأده. من أجل ذلك يتابع الغرب باهتمام وعن كثب كل مظهر من مظاهر الصحوة الإسلامية للانقضاض عليها قبل أن يصلب عودها.

(برنارد لويس) المستشرق اليهودي المتخصص في شؤون العالم الإسلامي يبرر هذا الاهتمام بقوله: «أولاً إن الأماكن المقدسة المسيحية موجودة في الشرق، فمن الطبيعي قيام الحشرية لدى الغربيين المسيحيين للتعرف إلى هذه الأماكن، بينما لا أماكن مقدسة للمسلمين في الأراضي المسيحية، ثم إن جماعات كبرى من المسيحيين ظلت موجودة في الشرق الإسلامي، فالعرب في الشرق الأوسط خارج الجزيرة هم في غالبيتهم الساحقة من المسيحيين، قبل الفتح الإسلامي، بعضهم اعتنق الإسلام وبعضهم لبث على دينه، سواء في سورية أم في فلسطين أم في مصر أم في إفريقيا الشمالية».[1]

---

(١) برنارد لويس: الحضارة وحاكمية العقل، ترجمة: ميسون عبدالله الخاطر، دار الوفاء القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٢٧.

السبب الثالث.. هو ذاك الشعور بالخطر الذي كان قوياً لدى الأوربيين، خطر الغزو الإسلامي في الألف سنة الأولى من الفتح الإسلامي حتى حصار فيينا في العام ١٦٧٣م فالعرب اجتازوا جبل طارق، والألب والبيرينيه قبل أن ينسحبوا. ثم جاء الأتراك، فاجتازوا الدردنيل والدانوب وحاصروا العاصمة النمساوية مرتين. إذن هناك ألف سنة من الشعور بالخطر كافية لبعث حشرية الأوربيين تجاه خصمهم الشرقي»[1].

كان هناك دائماً تفاهم أوروبي على منع الأمة العربية من أي شكل عملي من أشكال التضامن والتعاون، وكان هناك دائماً تفاهم أوروبي على منع الأمة العربية من الإفادة من الخلافات الأوروبية حول اقتسام النفوذ في الوطن العربي.. وكان هناك دائماً تفاهم أوروبي على إبقاء السقف منخفضاً للتسلح العربي وحتى للمعرفة العربية بالتقنية العسكرية. وكان هناك دائماً تفاهم أوروبي على ضبط العلاقات العربية مع الدول الأخرى لمنع قيام تحالفات عربية دولية ذات فعالية أو تأثير والإبقاء على العلاقات العربية مع دول الجوار في آسيا وإفريقيا في حالة من الاضطراب وعدم الثقة.

ولعل آخر مظهر من مظاهر هذا التفاهم الأوروبي هو تفتيت الأمة العربية إلى وحدات صغيرة، وتحريض الأقليات المذهبية والأثنية فيها على إثارة الفتن والاضطرابات الداخلية. وهنا تبرز خطورة العامل الإسرائيلي «كمملكة لاتينية صليبية» جديدة في قلب الأمة العربية.

فالصهيونية هي في جوهرها ثمرة من ثمار العقل الأوروبي ومظهر من مظاهر حضارته، كالفاشية والنازية والشيوعية.. وغيرها.. وبالتالي فإن الكيان الإسرائيلي، رغم أنه يعكس

---

(١) حقائق عن الصراع في العالم الإسلامي - برناردلويس - ترجمة ميسون عبد الله الخاطر - دار الوفاء، القاهرة - ص٢١١.

طموحات توراتية ورغم أنه يدعي تحقيق نبوءات دينية تقوم على وعد إلهي مقطوع ومبرم لبني إسرائيل، فإنه يشكل الإسفين الأوروبي في قلب الأمة العربية، والخندق الأمامي للدفاع عن المصالح الاستراتيجية الغربية بمنع قيام وحدة الأمة العربية.

إن تفشيل جميع محاولات الوحدة العربية في مشرق الوطن العربي ومغربه، وتحجيم عمل الجامعة العربية في الحدود الدنيا، وتفجير الاضطرابات بين الأنظمة العربية، أدت إلى تعثر تحقيق وحدة الأمة. وبغياب هذه الوحدة، يبقى العرب، كما كانوا قبل الإسلام ضحايا صراع القوى الكبرى.

لذلك لابد من التأكيد على أمر أساسي هام؛ هو استمرارية الماضي في الحاضر. سواء لجهة استهداف العالم الإسلامي أو لجهة صمود المسلمين في وجه محاولات الإخضاع والتدجين.

فليس صدفة أن يردد الجنرال الإنكليزي (اللنبي) بعد وصوله القدس إثر الحرب العالمية الأولى: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

وليس صدفة أن يبادر الجنرال الفرنسي غورو إثر الحرب العالمية الثانية برفس ضريح (صلاح الدين الأيوبي) في دمشق وهو يردد: «ها قد عُدْنا يا صلاح الدين».

وليس صدفة أنه حتى الآن لا تزال إسبانيا تحتفظ بمناطق محتلة شمال المغرب سبتة ومليلة وهي المناطق التي كانت تشكل رأس جسر الجيوش الإسلامية إلى الأندلس.

هناك خوف من عالمية الرسالة الإسلامية، وهناك حرص على المصالح الاقتصادية المباشرة للغرب. وهذان الأمران الخوف والحرص، يشكلان معاً القاعدة التي تقوم عليها استراتيجية الاستهداف.

يعترف أحد المفكرين الفرنسيين (آلان دو بنوا): «أن الغرب في حقيقته هو مومس عجوز شمطاء لا تخضع لغير القانون المالي، وهو: أي الغرب لم يتوقف منذ قرون عن نهب

الشعوب وسلبها هويتها وروحها، وهذا الغرب فهم مؤخراً وبشكل جيد أن نهوض «ثورة الهوية» في العالم العربي - الإسلامي هو اليوم القوة الرئيسية التي تهدد هيمنته الاحتكارية. وهو لذلك (أي الغرب) يبذل المستحيل لضرب هذه النهضة ولإظهارها بصورة الشيطان، مؤكداً بذلك، ومرة جديدة أنه عاجز عن أن يعيش علاقته بـ «الآخر» خارج إطار: التحويل (تحويل إنسان عن دينه، واعتناقه دين المبشر، فيهتدي!).. إن ما يسمى ببداهة حقوق الإنسان تستند اليوم إلى نفس الضمير الحي الذي سمح على التوالي بالسيطرة على الهنود الحمر «أهل البلاد الأصليين» باسم «الإيمان الحقيقي» أو «تفوق الرجل الأبيض» أو «التقدم والتنمية والتطوير».. ففي كل هذه الحالات كان المطلوب شرعنة حق التدخل في شؤون الغير بفضل الإيديولوجية المسيطرة.. والطريقة المستعملة هي ذاتها دائماً تقدم مركزية الذات الغربية خصوصيتها على أنها القانون العام، وتستخلص النتيجة من ذلك على هواها، والنتيجة المستخلصة هي أن الوضع يسمح لها بفرض نموذجها.

من الواضح ومن الطبيعي أن تكون الصحوة الإسلامية رداً طبيعياً وربما رداً علمياً على ذلك. تأخذ هذه الصحوة أشكالاً مختلفة باختلاف الجذور الاجتماعية والسياسية التي تنطلق منها، إلا أن كل هذه الأشكال تحشر عنوة تحت عنوان وحيد: «التطرف الأصولي». وتشوه عمداً في صورة واحدة: «الإرهاب». وبالتالي فإن أي خطأ ترتكبه حركة إسلامية - وما أكثر الأخطاء - تحمل وزره سائر الحركات الإصلاحية والتنويرية الإسلامية الأخرى. بل يحمل وزره الإسلام نفسه إمعاناً في التشويه والإساءة، وإمعاناً بالتالي في تعطيل دوره التوحيدي.

* وكما توضح الخلفية التاريخية التي أشرت إليها فإن استهداف العالم الإسلامي مر في ثلاث مراحل:

١- مرحلة التطويق من عام ١٥٠٠م حتى عام ١٨٠٠م.

٢- مرحلة الاحتلال من عام ١٨٠٠م حتى عام ١٩١٥م.

٣- مرحلة التقسيم من عام ١٩١٥م وهي مستمرة حتى اليوم.

لم تتجاوز حركة التحرر العربي الواقع التقسيمي. لقد أحبطت كل محاولات التوحد التي جرت في مشرق الوطن العربي ومغربه، حتى أصبحنا اليوم نشهد حروباً ومشاريع حروب حول حقوق تاريخية لقطر عربي ما، في قطر عربي آخر. كما أصبحنا نجد في معالجة هذه الاختلافات، وليس في تحقيق المشاريع الوحدوية التي نطمح إليها، إشباعاً لنهمنا القومي.

المظاهر الأولية لوقائع ما بعد الحرب الباردة ١٩٤٥ - ١٩٩٠م تشير إلى أن سكين التقسيم بدأت تضرب أعناق العالم العربي والعالم الإسلامي. فإذا سارت الأمور وفق ذلك، فإن معنى ذلك الترحم على اتفاق (سايكس بيكو). ذلك أن المرحلة التالية هي تقسيم المقسّم.

إن ما حدث في أفغانستان بعد الانكفاء الروسي من تقاتل فصائل المجاهدين، وما يحدث في شرق إفريقيا وخاصة في الصومال والسودان وإثيوبيا وجيبوتي، وما حدث في العراق بعد المغامرة العدوانية على الكويت وما جرى في لبنان ١٩٧٥ - ١٩٨٩م وفي الصحراء الغربية التي استنزفت المغرب والجزائر طوال عقدين تقريباً، وفوق ذلك كله، التوقيع على صيغ للتسويات السياسية فرضها اللاتوازن الاستراتيجي بين العالم العربي وإسرائيل، إن ذلك كله يشير إلى خطر محاولات إعادة تقطيع أوصالنا، وإعادة تعريف هويتنا، وإعادة تحديد تبعيتنا، وإعادة رسم دورنا.

بعد صورة خريطة سايكس بيكو، هناك صورة لخريطة جديدة قد تخرج من كاميرا نظام ما بعد الحرب الباردة.

وبعد أن كان النظام السابق يعرفنا باسم الشرق الأوسط نسبة إلى موقعنا منه فإن ثمة تعريفاً جديداً سيخرج من تحت طاولة مفاوضات السلام مع إسرائيل.

وبعد أن كانت حدود تبعيتنا تضيع وتتسع لمعادلات لعبة الأمم بين الشرق والغرب، ووفقاً لصعود وهبوط العالم الثالث، فإننا قد نجر إلى تبعية بلا حدود وبلا شروط.

وبعد أن كان دورنا يسمح لنا بالتمرد ولو بحساب، أو يسمح لنا على الأقل بالاحتجاج، أو حتى بالتذمر، فقد لا يكون لنا في لعبة الأمم موقع حتى بين لاعبي الاحتياط.

لذلك لا بد من أن نعمل على قلب هذه المعادلة رأساً على عقب. نحن أقوياء بديننا وبثرواتنا التي أفاء الله بها علينا. ولكن لا شيء يؤلم الإنسان أكثر من شعوره بأنه قوي، ولكنه غير قادر على استعمال قوته حتى لخلع حذائه.

- **هنا لابد من التأكيد على أمرين أساسيين:**

● **الأمر الأول:** إذا كان عالم الإسلام مستهدفاً بالشّرذمة والتفتيت فإن الرد لا يكون إلا بالتضامن والتنسيق والتكامل والتوحد.

● **الأمر الثاني:** إذا كانت أداة الشرذمة هي إثارة النعرات الطائفية والمذهبية والقومية فإن في الإسلام قيماً وتعاليم واجتهادات شرعية تحفظ وحدة الأمة في تنوعها لا بد من العودة إليها والعمل بموجبها.

فالمسيحيون العرب وقفوا إلى جانب المسلمين العرب أثناء فتح الشام. والمسيحيون العرب كانوا مع المسلمين العرب وغير العرب ضحايا الحروب الصليبية. ثم إن (صلاح الدين الأيوبي) الذي حرر القدس كان كردياً. و(يوسف بن تاشفين) الذي أنقذ غرناطة كان بربرياً. و(محمد الفاتح) الذي وصل إلى أبواب فينيا كان تركياً.

إن قدرة الإسلام على استيعاب شعوب وقوميات مختلفة، وعلى احترام حقوق

أبناء الديانات السماوية، تؤهله ليكون دائماً الرسالة العالمية. من أجل تعطيل هذا الدور يتعرض الإسلام للطعن والتشويه. يبقى المهم أن يرتفع أصحاب الرسالة إلى مستوى الرسالة. بمعنى أن يستهدف المسلمون أنفسهم وعياً وتربية لفهم الإسلام الصحيح وللعمل بتعاليمه التي تنظم علاقة المؤمن بنفسه، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بالله. عليهم أن يبادروا إلى ردم الهوة بين الإسلام كعقيدة إلهية وبين مجتمعاتهم المختلفة. وعليهم أن يصححوا العلاقة المشوهة بين المسلمين والمسيحيين في إطار الالتزام بما نصت عليه العقيدة الإسلامية من اعتراف واحترام وتواصل. وعليهم أن يقطعوا الطريق أمام توظيف معاناة الأقليات الإسلامية غير العربية في مجتمعاتهم في المعادلات السياسية للقوى المعادية. ولهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

الود المفقود بين الإسلام والحضارة الغربية(١)

توجد في متحف هانوفر بألمانيا مخطوطة من القرن السابع عشر تحمل توقيع الفيلسوف الألماني ليبنز. المخطوطة موجهة إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر تدعوه بإلحاح إلى غزو الشرق، مصر وبلاد الشام. وتتضمن المخطوطة ثلاثة إغراءات بالمهمة:

كان الإغراء الأول عبارة عن دراسة ميدانية وصفية لحالة الضعف العسكري والتناحر السياسي، التي كانت مستشرية في هذه المنطقة؛ وشمل الوصف كذلك مواقع الحصون والقلاع تسهيلاً لمحاصرتها وإسقاطها. (تقرير استخباراتي).

أما الإغراء الثاني فكان عبارة عن محاولة لاستنهاض حمية الملك الفرنسي حتى يقوم بالمهمة التاريخية. فقد رفعه الفيلسوف الألماني إلى مصاف الإسكندر المقدوني والقيصر الروماني، اللذين تمكنا من السيطرة على الشرق وإخضاعه.

وتمثل الإغراء الثالث في محاولة إثارة العصبية الدينية للملك الفرنسي عندما دعاه (ليبنيز) إلى العمل على تحقيق الهدف المقدس من الحروب الصليبية، التي انتهت في عام ١٢٧٠م، وهو تحويل الشرق إلى المسيحية وربطه بالغرب مرة جديدة ونهائية.

في ذلك الوقت كان الجيش الفرنسي الأقوى في أوروبة. وكان على رأس ألمانيا الملك دوشنبون، الذي كان يمثل حالة ألمانية استثنائية - ربما - في نزوعه نحو السلام الأوروبي. اعتقد الملك (لويس الرابع عشر) أن رسالة صديقه الفيلسوف الألماني تستهدف إغراءه لإبعاد الجيش الفرنسي من أوروبا إلى الشرق؛ ولذلك رفض الاستجابة. لكن هذه المخطوطة التي انتقلت فيما بعد إلى (نابليون) ربما شكلت أحد العوامل التي أغرته

---

(١) محمد السماك: صراع الحضارات، بيروت ص١١٣.

وشجعته على تغيير أولوياته العسكرية من غزو انكلترا إلى غزو مصر.

وهكذا بدلاً من أن يسقط نابليون انكلترا، لحقت به انكلترا حتى مصر، حيث وجهت إليه في أبو قير الضربة التي عجلت بسقوطه، فيما بعد، في معركة واترلو.

تاريخياً، بدأت الخطوة الأولى في مسيرة التباعد بين الإسلام والغرب بموقف كل منهما من الحضارة اليونانية. رفض المسلمون الأخذ بمبادئ هذه الحضارة التي تداخلت في عمق المسيحية - اليهودية. أدى هذا التباين مع الموروث الثقافي ومع التقاليد الاجتماعية المختلفة التي تراكمت عبر الأجيال إلى اتساع الهوة بين الأسس التنظيمية لكل من المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي، كما أدى إلى التباعد في أولويات سلم القيم الأخلاقية لدى كل منهما.

واقع الأمة الإسلامية الحضاري

من آفاق الماضي المندثر، إلى آفاق المستقبل المجهول، تنقل الإنسان من السؤال لماذا؟ إلى السؤال كيف؟.

أي: من البحث عن الغاية إلى البحث عن السبب.

لا يختلف اثنان على أن الأمة الإسلامية تعاني من مشكلة جوهرية. ولكن يبدو أن ثمة تبايناً في تحديد مكونات هذه المشكلة ومواصفاتها، ومع أن هناك إجماعاً على أن لهذه المشكلة جذوراً ثقافية، فإن الاختلاف يتركز بل يكاد ينحصر في تحديد الحلول المفيدة لمعالجتها.

هنا يبدو نقد الذات من حيث أنه يشكل حافزاً لنفض غبار الاسترخاء على ماض تليد، أكثر إيجابية من إطراء الذات والإشادة بإنجازات ذلك الماضي التليد. لا يعني ذلك بالضرورة أن ننتزع عن رؤوسنا أكاليل الغار وأن نضع مكانها أكاليل الشوك، ولكنه يعني أن نفتح عيوننا على قضايا العصر ومعارفه حتى نتمكن من الإسهام في صناعة الحضارة الإنسانية وحتى نشارك في تطورها.[1]

أليس غريباً مثلاً أن يكون العالم الإسلامي موطناً لأمية هي من أعلى النسب في العالم، وأن تكون أولى سورة من القرآن الكريم نزلت على سيدنا محمد ﷺ هي سورة «اقرأ»؟. إن إنتاج العقول لا يتم بقرار. إنه حصيلة تربية ثقافية وتراكم معرفي وممارسة عملية تتسم بالجرأة والحرية الفكرية لاقتحام آفاق المجهول.

إن مهمة المثقف هي أن يطرح المشاكل التي تواجه أمته، وأن يعرف هذه المشاكل، ثم أن يشرحها ويحللها، ثم عليه أن يفكر في الحلول المناسبة لها.

---

(١) محمد السماك: صراع الحضارات، ص ٢٠١.

إن مجرد طرح المشكلة هو في حد ذاته عملية ثقافية. ولا يستطيع أي مجتمع يفتقر إلى المثقفين مواجهة المشاكل التي يعاني منها. فالمثقفون هم الذي يحددون اتجاه السير نحو المستقبل.

الاتحاد السوفييتي انطلق من قاعدة مفكر واحد هو (كارل ماركس) ١٨١٨م - ١٨٨٣في كتابه «البيان الشيوعي » والاقتصاد الرأسمالي تأسس على قاعدة مفكر واحد هو (آدم سميث) ١٧٢٣م - ١٧٩٠م في كتابه «ثروة الشعوب ». والتفوق الإنجيلي ارتكز على قاعدة مفكر واحد هو (ماكس فيبر) ١٨٦٤م - ١٩٢٠م في كتابه «الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية ». كان عندنا «مفكرون» أمثال هؤلاء وأعظم، (الرازي)، (ابن رشد)، (ابن سينا)، وغيرهم كثير، ولكن ماذا نفعل حتى يكون عندنا «مفكرون» من هذا الحجم غداً وبعد غد؟.

تكونت عناصر الثقافة والتقاليد الثقافية الإسلامية ونمت وتطورت بتناغم أساس مع الدين، وهذا يعني أن فك الارتباط بين الدين والثقافة الإسلامية يجرد هذه الثقافة من هويتها ويقتلعها من جذورها الروحية. وعلى العكس من ذلك فإن الثقافة الغربية الحديثة تكونت خارج الدين، وفي أحيان كثيرة قامت على تحديه وعلى التناقض معه. وهذا يعني أن نموها أو تطورها يتطلب دائماً الإبقاء على الحالة التمردية والانقلابية للثقافة على الدين، والعمل على عزله عن التدخل أو التأثير في مسيرتها.

أدى ذلك إلى قيام هوة واسعة بين الدين والعلمانية، أي بين ما هو إلهي وما هو بشري، بين ما هو مقدس وما هو دنيوي، حيث الهيمنة دائماً وبالضرورة للدنيوي.

من هنا التناقض بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية.

إن التشخيص الأوروبي لواقع العالم الإسلامي يقوم أساساً على هذا التناقض. فالغرب يعزو تأخر المجتمعات الإسلامية إلى تمنعها عن فك ارتباطها الثقافي بالدين.

وهو يرى أن هذه المجتمعات تقصر عن مواكبة المسيرة الحضارة لأنها غير قادرة على أن تحذو حذوه بصناعة ثقافة لا دينية.

في الثقافة الغربية، الدين ماض، والتمسك بالدين هو ارتداد عن المستقبل. من هنا فإن الثقافة الغربية لا ترفض الإسلام كإسلام، ولكنها ترفض الدين من حيث هو مكون لثقافة عصرية، وتعتبر التماسك به حجر عثرة في وجه انتشار الحضارة الإنسانية وعولمتها.

أما التشخيص الإسلامي لواقع العالم الإسلامي فإنه أكثر تعقيداً. هناك ثلاث مدارس فكرية وصلت في تشخيصها لهذا الواقع إلى نتائج مختلفة.

تقول المدرسة الأولى إن الثقافة الإسلامية الحالية هي ثقافة استسلامية للماضي التليد وإن من مواصفاتها الرضى بالنفس واللامبالاة ورفض الثقافة الغربية جملة وتفصيلاً.

وتقول المدرسة الثانية إن الثقافة الإسلامية بدأت تتأثر بالمظاهر الخارجية للثقافة الغربية دون أن تغوص في أعماق جوهرها، وإن هذا التأثر المظهري يشكل خطراً على الهوية الإسلامية من حيث أنه يهز أركان الثقافة الإسلامية ويحاول أن يجعلها مجرد تابع للثقافة الغربية وليس شريكاً فيها.

أما المدرسة الثالثة فتدعو إلى نهضة توفق بين المنطق والوحي وبين العلم والماورائيات، بما يمكن العالم الإسلامي من تجنب التشرذم الفكري، وبالتالي من تجنب الوقوع، من حيث يريد أو لا يريد، فريسة بين براثن الثقافة الغربية في زمن العولمة الجامحة. ولقد أطلق أصحاب هذه المدرسة مشروع «أسلمة المعرفة»، وهو مشروع يقوم به المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن ويحاول إضفاء طابع إسلامي على مختلف المعارف الإنسانية العامة.

قلنا هناك مشكلة حقيقية في العالم الإسلامي، غير أن هذه المشكلة ليست موجودة في جينات خلايانا الحية، أي أنها ليست وراثية، ولكنها موجودة في عقولنا، وبالتالي لا

يمكن معالجتها إلا من خلال تغيير ما في هذه العقول، ومن خلال تحفيزها على الانفتاح على آفاق المعرفة التي حثنا القرآن الكريم، في عدد من آياته الكريمة، على اكتشافها في الكون وبأنفسنا.

مفارقات بين الحضارتين الإسلامية والغربية

تميزت الحضارة الإسلامية بقدرتها على التكيف، وعلى التعلم من الحضارات الأخرى، ولم تمارس في أي مرحلة من مراحلها دوراً إلغائياً، أو امتصاصياً للحضارات الأخرى. أما الحضارة الغربية فإنها تؤمن بفوقيتها وتحاول أن تفرض نفسها انطلاقاً من هذه الفوقية على كل الحضارات الأخرى. وبالتالي فإن المشكلة الجوهرية لا تكمن في رفض الحضارات والمتراجعة لهذا التكيف، بقدر ما تكمن في إصرار الحضارة الغربية بفوقيتها وليس بتفوقها على فلسفة الامتصاص والإلغاء.

يعترف (لوريت أوكتافيو باز) (الحائز على جائزة نوبل) أن فشل الفلسفة الغربية في القرن العشرين يعود إلى عجزها عن تقديم صيغة مركبة من تياريها الفلسفيين، الليبرالية والماركسية، بحيث تركت الحل الوحيد في الامتصاص، أو في الاستسلام. والآن بسقوط الماركسية حاولت الفلسفة الغربية أن تنهي التاريخ بانتصار الليبرالية، مما يعني إلغاء كل القيم الأخلاقية والتنظيمية التي تزخر بها الحضارات الأخرى، وخاصة الحضارة الإسلامية.

وكما لاحظ (طارق بنوري)، المدير التنفيذي لمعهد الإنماء السياسي في إسلام أباد - باكستان، «فإن الكتاب الغربيين يواصلون تقديم الإسلام على أنه مرادف للأصولية والإرهاب. هذه الكتابات تنطلق من شعور عميق بعداء يكمن في اللاوعي، يصور الإسلام على أنه الجانب الشرير والجاهل في الحضارة الغربية، وتصور هذه الكتابات الغرب على أنه العقل، والإسلام على أنه الجسد، الغرب على أنه الثقافة، والإسلام على أنه الطبيعة، الغرب على أنه مذكر، والإسلام على أنه مؤنث. وفي المحصلة الأخيرة يبدو الإسلام وكأنه مثير للغضب والهيجان والعنف والإرهاب، وكلها غرائز جسدية؛ وهي

تحتاج وفقاً لمفهوم العصرنة إلى التدجين. وفي الوقت نفسه يرفض المفكرون الغربيون القبول بشرعية أي فكر، أو قيم أو معرفة، تصدر عن الإسلام، إذ كيف يمكن التعلم من الجسد؟ بهذا المعنى، يصبح الإسلام حق «الآخر» الغريب عن الحضارة الغربية، ويجري التعامل معه على هذا الأساس، وهو الأساس الذي أقام عليه (صموئيل هنتجتون) نظريته الصدامية مع الحضارة الإسلامية.

ويصل التباين بين الإسلام والغرب «أرجو أن تلاحظوا أنني هنا أشير إلى الغرب وليس إلى المسيحية، لأن التعاليم، والقيم، المسيحية منفصلة تماماً عن ثقافة الغرب وحضارته» إلى نقطة اللاإلتقاء عندما يعتبر الغرب أن نجاحه وتفوقه هو ثمرة أخذه بالرأسمالية وبالعلمنة، وعندما يعتبر في الوقت نفسه أن فشل العالم الإسلامي وسقوطه (كما يقول المستشرق (أرنست رينان) في كتابه «الماركسية والعالم الإسلامي» ص ٩٧-٩٨) هو ثمرة التزامه بالدين. أما العالم الإسلامي فإنه يعزو تفوق الغرب إلى ممارسة الاستعمار النهبي، ويعزو تأخر الشعوب الإسلامية إلى ما تعرضت له من استعمار وابتزاز، وإلى ما واجهته من محاولات استهدفت، ولم تزل تستهدف، مسخ شخصيتها الدينية في محاولة لإلحاقها بمراكز قوى معادية لها.[1]

لا يستطيع العالم الإسلامي أن يقف في وجه المضمون الإلغائي للعولمة بمجرد رفضها. فالرفض لم يعد ممكناً واقعياً بعد أن أنتجت الحضارة الغربية كل الوسائل التي تمكنها من تعميم ثقافتها وقيمها وأذواقها على الآخرين. ولكن العالم الإسلامي يستطيع بالانفتاح على الحضارة الإنسانية، وبالمشاركة في صناعتها، وبالمساهمة في إبداعاتها أن يقف في وجه المد الإلغائي الذي يتعرض له، بل إنه يستطيع أن يضفي عمقاً روحياً على

---

(١) صراع الحضارات، مصدر سابق ص ١٣١.

هذه الحضارة وأن يهذب سلوكها بحيث تكون أكثر إنسانية مما هي عليه الآن.

ولأن الحضارة هي تراكم الثقافات تفرز قيماً مشتركة تعيد صياغة حياة الإنسان، فإن لنا من ثقافاتنا ومن قيمنا ما يؤهلنا للمساهمة في عملية نقل الإنسان إلى حقبة حضارية جديدة.

وهذا يتطلب أولاً، وقبل كل شيء، إعداد عقول نيّرة تكون في مستوى هذا التحدي الحضاري. إن تاريخ الإنسانية يشهد بأن كل التحديات الكبيرة قام بها أفراد نذروا أنفسهم لقيم ومبادئ يؤمنون بها ويكافحون من أجل تحقيقها فرادى وجماعات. قد يكون مثل هؤلاء الأشخاص قلة في مجتمعاتنا، وهم كذلك فعلاً، إلا أنهم قادرون، كما حدث في مجتمعات أخرى، على تغيير مسار التاريخ.

متى تتحضر الحضارة الغربية؟

قد يبدو السؤال سفسطائياً ولكن... ألم تكن ألمانيا متحضرة عندما استخدمت الأفران لصهر البشر؟.. أولم تكن الولايات المتحدة متحضرة عندما ألقت القنبلتين النوويتين على «هيرو شيما» و«نكازاكي» في اليابان؟. أولم تكن روسيا متحضرة عندما ارتكب ستالين جرائمه الجماعية؟. وهل كانت الثورة الثقافية التي قادها (ماوتسي تونغ) في الصين حضارة؟ وماذا عن مذابح بول بوت في كمبوديا؟. وماذا عن مجازر الحكم العنصري في جنوب إفريقيا؟. بل ماذا عن جرائم إسرائيل في فلسطين وفي مصر ولبنان، وآخرها مجزرة غزة ومن قبلها قانا وجنين...إلخ.

شنَّ الحرب العالمية الثانية متحضرون من على جانبي المحيط الأطلسي، ومن على جانبي المحيط الهادئ: أمريكا، وروسيا، واليابان، وأوروبا. وأسفرت تلك الحرب عن مقتل ٥٤ مليوناً و٨٠٠ ألف إنسان، واستنزفت آلاف المليارات من الدولارات، ودمرت مدناً وأحرقت مصانع ومزارع لا تعد ولا تحصى. ومع ذلك فإن الاحتفال بذكراها يتواصل سنة بعد سنة وكأنها إنجاز حضاري يعتز به.

في عام ١٩٠٠م اكتشف العالم الفيزيائي الألماني (ماكس بلانك) أن الذرَّة تبعث طاقة إشعاعية بتفجرات سماها «كوانتا»، ثم اكتشف عالم الفيزياء البريطاني (ج. تومسون) جزئيات الذرة، «الإلكترون». أدى الاكتشافان إلى صناعة أول سلاح للدمار الشامل الذي استخدمته الولايات المتحدة ضد اليابان، وهو السلاح الذي خيم رعبه على العالم طوال نصف القرن الماضي في فترة ما يعرف بالحرب الباردة. إذ كانت الحرب الساخنة قد هزمت الفلاشيا فإن الحرب الباردة هزمت الشيوعية، ولكن من الذي خرج منتصراً من الحربين الساخنة والباردة؟.

استناداً إلى المفكر الأمريكي - الياباني الأصل -(فوكاياما)، فإن المنتصر هو الليبرالية الغربية التي تسود العالم اليوم من خلال فلسفة السوق المفتوح، مما يعني نهاية الصراع وبالتالي «نهاية التاريخ».

غير أن ثمة نظرية أخرى تقول: إن الصراع لا يمكن أن ينتهي طالما أن الإسلام قائم كدين وفكر وعقيدة، وطالما أنه ينتشر على قاعدة رفض الليبرالية المتمردة على الضوابط الإلهية، الأمر الذي يضعه في حالة تماس دائم مع الحضارة الغربية، ومع آفاق عولمتها، على النحو الذي قدمه المفكر الأمريكي (صموئيل هنتجتون) في دراسته عن «صراع الحضارات».

إن حضارة إلغاء الآخر ليست حضارة، وتوظيف التقدم لفرض هذه الإلغائية ليس حضارة. إن إسرائيل على سبيل المثال، وبعد امتلاكها السلاح النووي والكيميائي، تعمل على تصنيع سلاح بيولوجي جديد مستفيدة من الاكتشافات الأمريكية الأخيرة في علم الجينات في الخلية الحية، والهدف ما هو؟ لا شك سحق الشعب الفلسطيني برمته ومنع أي بريق ولو بسيط لتقدم أي شعب عربي أو إسلامي، ويبقى السؤال مطروحاً، متى ستتحضر الحضارة الغربية؟!!![1]

---

(١) انظر: محمد السماك: صراع الحضارات، بتصرف ص ٩٧ وما بعدها.

منهجية التوفيق بين الثقافة الإسلامية ومكاسب الحضارة الحديثة

إن المجتمعات الإسلامية بدأت تاريخياً الانفتاح على الغرب وهي تعيش حالة من الانفصام بين المعرفة والمنهج السلوكي الذي تتبعه وتمارسه. لذلك لم تكن هذه المجتمعات، تمتلك القدرة والإمكانية للوقوف على أرض صلبة من أجل التقويم الدقيق للثقافات الوافدة[1]. مما جعل هذا الانفتاح العشوائي يخلق فوضى شاملة في جسم الأمة الإسلامية وهذه من أهم آثاره أزمة هوية -فوضى في المصطلحات والبنية النظرية - هجرة الأدمغة - التغير المفاجئ في البنية الاجتماعية والاقتصادية والبنى الثقافية. لذلك فإن حجر الزاوية في عملية التوفيق أو الانفتاح الواعي، هو الحفاظ على ذاتنا الحضارية وانتمائنا المميز، بما تتضمن هذه الذات والانتماء من تاريخ وقيم وانطلاقاً من هذه الذاتية نتعامل مع الآخر.

أما محاولة تجاوز الفرق الحضاري الذي نعيشه مع الغرب، فلا يمكن أن يتحقق بإلغاء الذات الحضارية للعالم الإسلامي، بل يمكن القول إن طي المسافة الطويلة التي تفصلنا عن الحضارة الحديثة، لا يمكن أن يكون إلا بالحفاظ على هويتنا الحضارية وتميزنا الأيديولوجي، وانطلاقاً من هذه الثروة الهائلة والعمل على تفعليها سياسياً واجتماعياً سنؤهل لطي هذه المسافة الحضارية. ولنا في التجربة اليابانية خير مثال على ذلك، إذ لم تتخل في نهضتها الحضارية عن ثقافتها وعاداتها وخصائصها الذاتية، وإنما قامت في البدء بتركيز هذه الخصائص من أجل استيعاب التطورات التكنولوجية الحديثة.[2]

---

(١) منير شفيق: الإسلام في معركة الحضارة، دار الكلمة- بيروت، ص ١٥٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢١١.

«والأصالة الإسلامية من ميزاتها الأساسية الانفتاح على الواقع في سبيل تفعيله وتحريكه، هي تلتصق التصاقاً كبيراً بالمجتمع (العصري) من أجل توجيهه حسب أوضاعه الثقافية والتاريخية»[1]. ومن الخطأ الافتراض أنه من أجل العصرنة لابد من الاغتراب ومقايضة تاريخنا وثقافتنا بالاندماج في الغرب. ويكفينا دليلاً على ذلك أنه لم يرو لنا التاريخ أن أمة من الأمم استطاعت أن تتقدم وتتطور أو تدخل عالم المعاصرة. بدون الاعتماد على تاريخها وقيمها وأصالتها، فالحضارة الغربية الحديثة، لم تحقق كل إنجازاتها ومكاسبها، إلا بالاعتماد على قيمها وإرثها التاريخي، حتى أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تحقق كل ذلك إلا بالأصالة الأوروبية التي حملها معهم المهاجرون إليها من أوروبا. فطريق العصرنة ليس محاكاة الغرب فقط، إذ أن التحديث القسري يؤدي إلى الاستبداد والتسلط السياسي، لأن عملية التحديث القسرية تحاول أن تبني منظومة القيم السابقة، واللغة كأداة للتواصل الثقافي والاجتماعي وجميع أشكال التواصل بين أبناء المجتمع، والعمل على تغيير المفاهيم وأنساق التفكير، ومعايير التفاضل الثقافي والاجتماعي، وهذه العملية لا تنجب إلا الاستبداد والانسحاق وفقدان التوازن والاستلاب القيمي والاجتماعي.[2]

فلا يمكن إذن أن نقابل بين الأصالة والمعاصرة أو التقليد والتجديد ونجعل أحدهما على حساب الآخر. نحن نقول إن العصرنة الحقيقية والفاعلة، هي التي تأتي عبر الأصالة التي تحرك فينا كل العوامل والعناصر التي تخلق الأمة الفاعلة والمؤثرة

---

(١) انظر: د. ولي الدين الفرفور: ثقافة الحوار بين الأصالة والمعاصرة، دار الفرفور، ص ٢٨٦ وما بعدها بتصرف.

(٢) الشيخ عبدالعزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة والحرية، دار الهلال-مصر، ١٩٨٣ ص ١٥٨.

والشاهدة، والأصالة هنا لا تعني العودة (بالمعنى الزمني). وإنما تعني الأخذ بنمط حضاري يمدنا بالقوة والمعرفة وقادر على تحقيق الطموحات الحضارية للأمة. فالإنسان المؤمن أو الحركة الإسلامية لا تطلب الماضي لذاته وإنما من أجل إعادة الأصول والعقائد والقيم التي صنعت الماضي المجيد، إلى الحاضر والانطلاق بها إلى المستقبل، وبكلمة فإن الماضي الإسلامي يشكل خريطة ثقافية، سياسية، اجتماعية متكاملة شاملة، ونظرة الإسلام إليه تحوله إلى قوة دافعة لتحقيق المزيد من الأمجاد والازدهار والتقدم. أي أن الحركة الإسلامية ليست الهروب من الحاضر ومسؤولياته وتحدياته (كما يزعم البعض) وإنما هي عملية واعية لتحقيق الوجود. لأن التاريخ أو الماضي في النظرة الإسلامية، هو الذي يمتشق صهوة الحاضر وعدته، أما المجموعة البشرية التي تنفصل عن تاريخها أو ماضيها، فهي تقوم بعملية بتر قسري لشعورها النفسي والثقافي والاجتماعي، وسيفضي هذا البتر إلى الاستلاب والاغتراب الحضاري. فعلاقتنا بالآخر في تكوين صلات عادلة مع الآخر. واستطراداً نقول بأن الجهة التي تتبنى هذه العلاقة ينبغي أن تكون جهة أصلية وصلبة في الحفاظ على هويتها وجذورها العقائدية.

وكمال المنهجية والاستفادة بوجود الانفتاح الواعي أن يكون انفتاحاً على الآخر وليس تقليداً له.

والمقصود بالانفتاح الواعي، هو أن ننطلق من قيمنا ومبادئنا وأصالتنا، للأخذ بالمعرفة والتطورات العلمية التي تحدث في الغرب، كما حصل للغرب نفسه حيث أنه انطلق من مفاهيمه وسياقه الثقافي والمعرفي للأخذ بجميع التطورات التي تحدث في العالم، ويشير إلى هذه المسألة (جبران) عندما يقول:

(كان الغربيون في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي. أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخون الغربيون ويبتلعونه ولكنه

لا يتحول إلى كيانهم بل يحولهم إلى شبه غربيين وهي حالة تبين لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه وطوراً كطفل بدون أضراس)[1].

وقضية الاستقلال عن الغرب أو التبعية له تبدأ بالفكر والثقافة قبل الاقتصاد والسياسة، لأن الفكر المستقل سيصنع اقتصاداً مستقلاً يعتمد على واقعه الموضوعي وخصوصياته الذاتية، كما أن الفكر التابع أو الثقافة المهزومة مهما أوتيت من إمكانات مادية هائلة، لن تخرج عن إطار التبعية الاقتصادية، ونقل النظريات الجاهزة، وتطبيقها في تربة ليست تربتها، لذلك: «فتشكيل سياسة اقتصادية سليمة يبدأ بالفكر والثقافة قبل السياسة والاقتصاد، وبتعبير أكثر وضوحاً، إن العملية الاقتصادية، ليست منفصلة عن النهضة الحضارية الشاملة للأمة، لأن العناصر المتداخلة مع بعضها والمكونات واحدة، والأرضية التي تنطلق منها مشتركة».[2]

من هنا فإننا ندعو إلى الانفتاح على الغرب، والاستفادة من معارفه وعلومه، لا التقليد له والأخذ بنمط الحياة لدى الغربيين. والفرق الجوهري بين الانفتاح والتقليد أن الأول ينطلق من أرضية ثابتة واضحة تجاه قيمه ومبادئه، وينظر إلى الآخر الحضاري بمنظار القيم والمبادئ التي يعتقد بها، عكس التقليد الذي يعني الانتقال من البيئة - بالمعنى العام- المحلية، والانطلاق من ذات التربة المغايرة، مما يفقد المرء هويته الحضارية.

والأنكى من ذلك أنه لن يتمكن أن يكون غربياً (بالمعنى الحضاري) لعنصرية الغرب ومنعه أسرار المعرفة والعلوم عن جميع الشعوب الأخرى.

والجدير بالذكر أن بعض الأبنية النظرية الغربية، التي تحاول بعض المدارس الفكرية

---

(١) أنور الجندي: يقظة الفكر العربي، مرحلة ما بين الحربين، مطبعة زهران، القاهرة - ١٩٧٢م.

(٢) محمد عطية الإبراشي: عظمة الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٣م، ص٢١١.

والسياسية والاقتصادية استيرادها، هي مصممة من أجل استمرارنا في التبعية، وما شعار اللحاق بالغرب عن طريق هذا المركب النظري إلا سراب، وكما قيل أنه سيكون كالحمار الذي يجري وراء الجزرة طول عمره دون أن يلحق بها.

وأخيراً إن الأصالة مطلب حضاري، باعتبارها الإطار المرجعي والروحي والأخلاقي والمعرفي للعالم العربي والإسلامي، كما أنها لا تعني تقليد الماضي بل هي تعبير عن الحاجة إلى التعريف بالذات، وتحديد العلاقة مع الآخر الحضاري، إنها مقاومة ذاتية للهيمنة والتحلل والسلبية، وهي عامل توازن يمنع المجتمع من التحول إلى ورقة في مهب الريح. فالأصالة نمط ثابت للتفاعل المستمر مع الواقع والعصر. لأن التقدم والرقي، لا يأتيان من فراغ وإنما يعتمدان على قيم وتاريخ، وينطلقان بهذه القيم والنماذج من أجل التقدم والتطور. فالأصالة ليست رصيداً تاريخياً فحسب، وإنما هي الإرادة الذاتية على الإبداع.

كيف نتعامل مع الغرب؟

نحو منهج جديد لقراءة الغرب:

في إطار التدافع الحضاري الذي تعيشه البشرية جمعاء، لازالت الأسئلة التاريخية والمصيرية تلقي بظلها، وتبحث عن إجابات وافية ودقيقة في الفكر العربي والإسلامي. وتندرج هذه الأسئلة المصيرية في حقول معرفية عديدة، لعل أبرزها علاقة الحاضر بالمستقبل، وكيف نتعاطى مع قوى الحاضر وصولاً إلى المشاركة في صنع نسيج المستقبل.

وفي هذا الإطار تبرز أهمية بلورة الرؤية ومعرفة الآخر الحضاري، وإضاءة النقاط المظلمة والمجهولة في مسيرة التطور الغربي التاريخي والحضاري. لكي لا نقع في حلقة مفرغة في عملية التدافع، أو بالأحرى لكي لا نقع أسرى اليأس والجهل بالآخر، ونتجاهل قدراته المتعاظمة في الكثير من المجالات والحقول..

فالتوازن النفسي والمعرفي من الشروط الضرورية لمعرفة الآخر حق المعرفة: هياكله - مؤسساته - مراكز القوى فيه -استراتيجياته -طرائق التفكير والتخطيط لديه.. وما أشبه.[1]

ينبغي التأكيد في هذا المجال، على أننا قدمنا الكثير من الضحايا ووقعنا في الكثير من الإخفاقات والإحباطات، بسبب انطوائنا على أنفسنا، وعدم الانفتاح على غيرنا وصولاً إلى بلورة صيغة عملية للتواصل الحضاري بيننا وبين الحضارة الحديثة..

ويعزى ذلك إلى غياب المنهج الواضح والدقيق في عملية التواصل، مما جعل الرؤية ضبابية أو خاضعة لمزاج فرد أو هوى مجموعة أو مصلحة تكتل. وضاعت بين هذه وتلك الرؤية الإستراتيجية الواضحة في علمية التواصل الحضاري مع الآخر.

---

(١) محمد السماك: صراع الحضارات، ص ١٧٣.

إن التحدي الذي تعيشه الأمة اليوم، لا يستدعي الانكفاء وإنما الانفتاح والتجديد، لأننا لا يمكننا أن نواجه التحدي بالهروب إلى الوراء، فلم يسجل لنا التاريخ أن أمة استطاعت مقاومة التحديات التي تواجهها بالانكفاء على ذاتها. كل التجارب التاريخية تؤكد وتثبت العكس. بمعنى أن سبيل الأمة التي تريد تجاوز أزماتها، والانتصار على ظالميها، هو الانفتاح المعتمد على الأصالة، والتجديد المتكئ على الثوابت والقيم الراسخة.

وهذه الدراسة جاءت لكي تؤسس موقفاً وخطاباً حوارياً مع الغرب. وهذا لا يعني ابتداءً تبني أطروحات الغرب ومفاهيمه وأنماط معيشته، وإنما يعني أن شرط المواجهة الناجحة هو المعرفة، وطريق المعرفة الأفضل، الحوار العميق لنفهم الآخر عن قرب ويفهمنا هو أيضاً كذلك.

فلا يمكن أن نحقق المعاصرة والحداثة بإلغاء الأصل، كما أننا لا يمكن أن نلغي العصر بدعوى الحفاظ على الأصالة.

إن أصالتنا الإسلامية تدعونا إلى استغلال الطبيعة أحسن استغلال لإشباع حاجاتنا المعيشية والاجتماعية، وتحترم في سبيل ذلك كل وسيلة اكتشفها الإنسان أو اخترعها، وكل قوة سخرها، أو تقنيات استعان بها، ونظم اتخذها وتجارب تعلم منها، بشرط ألا تتعارض مع المثل الروحية والخلقية لدينا.

إن من الحقائق الأساسية التي لابد من إدراكها وعدم الغفلة عنها، أن الآخرين دخلوا عالم المعاصرة ليس حينما تخلوا عن ذواتهم ومقدساتهم، وإنما بالنقيض من ذلك تماماً. دخلوا إلى عالم العصر والمعاصرة، حينما عضوا بالنواجذ وتمسكوا بجدية بذواتهم ومقدساتهم.

ويكفي أن نضرب مثلاً على ذلك بالولايات المتحدة الأمريكية، مع العلم أن مجموعات بشرية مختلفة من جميع أنحاء العالم هاجرت إليها واستوطنت فيها إلا أنها

وبحكم عوامل عديدة انتصرت للذات الأنكلوسكسونية. وعن طريق هذه الذات والاعتزاز بها دخلت عالم المعاصرة وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة العالم والقوة العظمى.

فشرط المعاصرة هو التأصيل، فلكي تكون عصرياً ناجحاً كن أولاً أصيلاً ومحافظاً على مقدساتك وذاتك الحضارية، وهذا ما تعلمنا إياه جميع الحضارات والأمم التي كان لها شأن على وجه هذه الأرض.

كما أن عملية الانفتاح والتفاعل مع الآخر، لا تعني إلغاء الخصائص الذاتية والحضارية، وإنما سبيل إلى تكريسها وتطوير آثارها ومداليلها. لذلك ينبغي أن يسبق عملية الانفتاح والتفاعل تكريس للذات الحضارية في الواقع المجتمعي وفي كل الحقول والجوانب.

وبالتالي فإن عملية الانفتاح والتفاعل ليست عملية فوقية، لا تصيب إلا سطح المجتمع وبناه الفوقية، وإنما هي عملية صميمية مرتبطة بالدرجة الأولى بالبنى الأساسية والتحتية للمجتمع. فلا يمكن أن نقوم بعملية التفاعل مع الآخر ونحن نعيش واقعاً اقتصادياً واجتماعياً ضعيفاً ومهترءاً.

إن قوة المجتمع واقتصاده وبناه الأساسية، هي المقدمات الضرورية والأساسية لعملية التفاعل. لأنها لا تعني استجداء الخبرة والكفاءة والتقنية من الغير، إنما تعني بكلمة واحدة تأسيس أرضية مناسبة لمشاركة جميع الطاقات والكفاءات الإنسانية بعيداً عن انتماءاتهم السياسية والعرقية في بناء مستقبل أفضل للبشرية. نتجاوز فيه الحدود المصطنعة الضيقة الذي قدمت البشرية بسببها الكثير من الضحايا والانكسارات والخسائر. إننا نبشر بعصر تسوده قيم العطاء والعدالة والسلام والأمن، عصر مسكون بهاجس تقدم الإنسان المادي والمعنوي معاً.

يشير ابن رشد في كتابه: (فصل المقال ما بين الحكمة والشريعة من اتصال)، إلى نظرية التفاعل هذه عندما يرى بأنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك، وسواء أكان ذلك الغير مشاركاً لنا في الملة أو غير مشارك، فإن الآلة التي تصح بها التذكية، ليس يعتبر في صحة التذكية بها، كونها آلة المشارك لنا في الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة وأعني بغير المشارك كل من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام وكان كل ما يحتاج إليه من النظر قد فحص عند القدماء أتم فحص، فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان كله صواباً قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه.

وعلى هذا فإن «عملية التفاعل مع الآخر الحضاري، لا تعني الذوبان أو الانسلاخ من المدى الثقافي الأصيل، والانتقال أو القفز إلى المدى الثقافي المضاد والمهيمن والمسيطر والغالب. وإنما التفاعل يعني أن ما من جسم حضاري إلا وله ركائزه ومقوماته ونقاط قوته، يحاول تعميمها ونشرها في ربوع العالم، لذلك فالتفاعل لا يعني المماثلة وتقليده في ركائزه وأنماط معيشته، وإنما التفاعل هو عبارة عن حركة (داخلية - ديناميكية) تجري في عروق المجتمع والأمة متحفزة للبناء والتطوير، وتمتلك الاستعداد النفسي الكافي لتكوين حالة تثاقف أو تفاعل مع الجانب الحضاري الآخر».[1]

إن هذا المخزون المعنوي الهائل، والاندفاع الذاتي المتعاظم هو الأرضية الطبيعية لمقولة أو موقف التفاعل.

بالطبع لا نكتفي بهذا المخزون وإنما نحاول ترجمته، وتحويله إلى أطر عملية وخطوات تنفيذية وبرنامج ومشروع للتواصل الحسن والإيجابي مع الآخر الحضاري. إذاً التفاعل يعني

---

(١) محمد السماك: صراع الحضارات، ص ٢١١.

الأصالة مع الانفتاح، إبراز الهوية الحضارية الذاتية دون إغفال مكاسب الإنسانية الحضارية والعلمية، القدرة على التكيف الإيجابي مع تطورات الحياة دون نسيان القيم والثوابت. وبكلمة، التفاعل هو رسالة موقف الإنسان المسلم في هذه الحياة، لأن رسالته وعقيدته تدعوه إلى ذلك وتحفزه على السعي والكدح من أجل بلوغ المراتب العليا في مدارج الكمال الإنساني.[1]

فالحضارة الحديثة ليست شراً مطلقاً ينبغي الابتعاد والانزواء عنها، وإنما هي تحمل الوجهين. والتفاعل يختص بالجانب الإنساني من هذه الحضارة، لذلك فإن عملية التفاعل ليست بسيطة وإنما هي دقيقة ومعقدة. لذلك وفي إطار موقف التفاعل الذي ندعو إليه مع الجانب الحضاري والإنساني في المدنية الحديثة نؤكد على الأمور التالية:

- **أولاً**: إن الجهة المؤهلة نفسياً وفكرياً وعملياً لعملية التفاعل، هي الجهة التي تعيش الأصالة بكل قيمها ومبادئها وتطلعاتها. لأن التفاعل بحاجة إلى مؤهلات لا تتوفر إلا في الأصيل أو من يدعو إلى الأصالة وإبرازها في عملية التحدي الحضاري.

ولكن لماذا تكون الجهة الوحيدة المؤهلة لممارسة دور التفاعل مع الحضارة الحديثة، هي تلك الجهة التي تمتلك نصيباً كافياً من الوعي لذاتها الحضاري، وتعتز بانتمائها إلى تراثها الإسلامي وتستمد منه قيمها ومبادئها ومناهج ونظام حياتها، لماذا نعتقد أنها هي المؤهلة دون غيرها؟

* هناك عدة أسباب نذكر منها:

١ - لأن النخب والجهات الأخرى، تعيش الاغتراب على مستوى الأيديولوجيا والمنهج، ولا يمكن لمن نما بعيداً عن ثقافة الذات ومحارباً لقيمه الإسلامية وأصالته الحضارية، أن يكون هو المباشر لعملية التفاعل مع الحضارة الحديثة. فهذه النخب تنظر إلى الأمة

---

(١) رضوان السيد: الجماعة والمجتمع والدولة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٣٥.

والواقع الإسلامي بأعين ونظارات مستعارة، وتتحدث بلغة غير لغة الأمة وجهازها المفهومي والقيمي.

٢- إن غياب الهوية من جراء عملية الاغتراب يمنع أيضاً من أن تكون هذه الجهات هي المباشرة لعملية التفاعل.

إذ لا يعقل أن نوكل أمورنا المصيرية والحضارية إلى نخب وكتل بشرية لم تهتد بعد إلى هويتها وحقيقة وجودها، لأن غياب الهوية يعني فيما يعني الضياع والفراغ والتحول إلى ساحة مفتوحة لكل التجارب على حد تعبير (لأوسيبوف) في كتابه (قضايا علم الاجتماع).

يقول الأستاذ (محسن عبد الحميد) عن النخب العلمانية بأنهم: واجهوا الغرب وحضارته وعلمه وأدبه وفنه وواقعه. واجهوه بعقول خاوية وقلوب فارغة ونفوس مجردة عن معاني الأصالة والعزة، إنهم يواجهون من منطلق الجهل بالذات والشعور بالهزيمة فالنخب العلمانية المغربة كانت صدى للتيارات والمدارس الفلسفية والفكرية في العالم الغربي.

٣- إن النخب العلمانية المتغربة هي التي نشرت موقف المهادنة والخضوع للغرب، وقامت بتعبئة الرأي العام العربي والإسلامي باتجاه أنه لا مناص من الخضوع للغرب والقبول بالواقع الذي يريد أن يفرضه ويعممه على العالم بأسره. يقول (سلامة موسى) في كتابه (اليوم والغد): يجب أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا فإني كلما ازدادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها..

لهذا كله تبقى الجهة الوحيدة القادرة على عملية التفاعل مع الآخر الحضاري، هي تلك الجهة المتماسكة بذاتها الحضارية والمعتزة بمبادئها وقيمها الإسلامية..

● **ثانياً:** إن التفاعل ينبغي أن يسبقه معرفة بالآخر الحضاري، حتى يؤتي ثماره بما يخدم الإنسانية جمعاء. لأن وتيرة التفاعل تتصاعد باستمرار بشكل حسن وإيجابي، حينما تكون هناك معرفة دقيقة بالآخر الحضاري. كما أن معرفة الآخر تزيد مجالات التفاعل وخياراته.

وإننا كمسلمين لا يمكننا أن نستفيد استفادة حقيقية من مكتسبات الشعوب والحضارات الأخرى، من موقع الدونية والتبعية ومركب النقص. فالمدخل الوحيد للاستفادة من مكتسبات الآخرين الحضارية هو مدخل التفاعل والتعاطي الإيجابي، المنطلق من ذات تعتز بذاتها وحضارتها، وتسعى نحو الإضافة الفعلية لتنمية واقعها الحضاري بما يخدم طموحاتها الحضارية الكبرى.

ينبغي التأكيد على أن الخطيئة الحضارية الكبرى، التي وقع فيها الغرب، أنه قام بعملية التوفيق والجمع بين تقدمه وتطوره التقني والمادي، وتقدمه في مجال القيم والأخلاق والسلوك. كذلك فهو يصدر تكنولوجيته مع قيمه، وتطوره التقني مع أخلاقه ونمط معيشته. معتبراً أن اللحاق بركبه الحضاري، لا يتم إلا عن طريق الغربنة أو التغريب في السلوك والأخلاق أولا ومن ثم في الاقتصاد والسياسة بعد ذلك.

بينما موقف التفاعل يحافظ على الذات، ويهضم معطيات الآخر الحضارية كما أن الوعي السطحي بالغرب، يجعل الفكر العربي الإسلامي، يعيش دوماً مرحلة الانفعال والدهشة من الغرب وتقنيته المتقدمة. كما يحد من عناصر الإبداع والتجديد في فكرنا الذاتي بفعل الأسر والانبهار الفكري والنفسي.

ولهذا يمكن القول بأن أغلب الحركات العلمانية، التي تدعو إلى الارتماء في أحضان الغرب، والاقتباس منه كل شيء هي حركات تدفعنا إلى السير باتجاه أفقي يتنقل بنا من مرحلة انحطاط إلى أخرى، نخدع فيها ببعض الألوان والمظاهر فقط.

كما أن نظرية القطيعة وغلق الأبواب والنوافذ تجاه الغرب، نظرية طوباوية ولا نصيب لها من الواقعية والشرعية، لأن الغرب ليس استعماراً وسيطرة ونفوذاً وحسب، وإنما إضافة إلى ذلك هو تكنولوجيا وتقنية متقدمة وثورة معلوماتية واتصالية.

لذلك لا يمكن لنا أن نستغني عن الحضارة الحديثة، وحتى الذي ينادي بنظرية القطيعة يقتبس من الحضارة الحديثة الكثير دون الإفصاح عن ذلك.

ينبغي أن نستفيد من الإنجازات الحضارية والمكاسب الإنسانية، التي حققتها الحضارة الحديثة، وموقف القطيعة يمنع الاستفادة من كل هذا. لذلك فالنظرية المثلى التي ينبغي لنا أن نتبناها تجاه الحضارة الحديثة هي التفاعل والتثاقف معها في الأمور التالية:

١- الإنجازات التكنولوجية والتقنية الهائلة التي حققتها الحضارة في مختلف الحقول والجوانب.

٢- الهياكل المعرفية المرتبطة بالدفاع عن حقوق الإنسان، والحفاظ على البيئة. لأن هذه قيم سليمة وعادلة. صحيح أنها استنبطت بعيداً عن الوحي الإلهي، إلا أنها لا تعاديه وإنما تقترب منه في اختياراتها الكبرى.

بعد كل هذا نستطيع القول، إن نظرية التفاعل تسعى إلى ترشيد الحضارة الحديثة، وسد مناطق الفراغ الذي تعيشها وإنهاء أو تقليص نقاط التطرف التي تعاني منها هذه الحضارة. وبكلمة إننا كمسلمين مسكونون بقيادة العالم والشهادة على الأمم، وفي هذه الظروف لا يمكننا أن نحقق قيمة الشهادة والقيادة من دون التفاعل مع ا لحضارة الحديثة.

إننا مسؤولون تجاه الحضارة المعاصرة. ومسؤوليتنا تتمثل في ترشيد المسيرة وتقويم الاعوجاج وتأصيل الاختيارات الكبرى للحضارة، والتبليغ للإسلام بما يتناسب ومتطلبات العصر.

وجميع هذه الأمور لا تتحقق من دون التفاعل. فالتفاعل هو قدرنا ومصيرنا. وإذا لم

نخطط للتفاعل ونبلور استراتيجيات عملية للتعاطي، فإننا سنقع في مهاوي الاستلاب والذيلية والتبعية. لذلك فإن خيارنا الاستراتيجي والمستقبلي تجاه الحضارة هو التفاعل ونقصد بالتفاعل الآتي:

١- الالتزام بالأصالة والقيم الحضارية للإسلام، والتأكيد على دور الجذور في عملية التحديث. إذ ثمة حقيقة أساسية في عملية النهوض الحضاري بشكل عام. وهي أن أمة من الأمم لم تنهض ولم تحقق قفزة حضارية مطلوبة بدون الاعتزاز بذاتها الحضارية، والعمل على تجسيد قيمها ومبادئها في مسيرة المجتمع والحضارة. ولأن شرط النهوض يتمثل في الرجوع إلى الذات، فأية عملية نهضوية لا تستمد من أصالتها الحضارية خريطة عملها ومبادئ مسيرتها هي أقرب إلى الابتذال منها إلى الأصالة.

إذ أن الأصالة تشكل قاعدة التكوين التي لا غنى عنها في عملية الوثوب الحضاري. وهذا يؤدي بنا إلى الاعتقاد الجازم، أنه لا نهضة حقيقية ولا تطور وتقدم اجتماعي وحضاري بلا أصالة، فالأصالة شرط النهضة ومنطلق التقدم والتطور ولنا في التجربة اليابانية خير مثال.

٢- الانفتاح والتعاطي الموضوعي مع العصر ومتطلباته، لأن الانغلاق والانطواء عن منجزات الحضارة الحديثة هو بالدرجة الأولى إفقار للوجود الذاتي، بحيث تضحى هذه الأمة المنطوية والمنغلقة وكأنها تعيش في القرون السالفة بعيدة كل البعد عن إنجازات الإنسان المعاصر، وآثار العلم وحسناته.

وإننا كمسلمين من الطبيعي أن نرفض بعض أجزاء وأسس وتجليات الحضارة الحديثة، لأننا في بعض حقب تاريخنا الطويل ضحايا لهذه الأسس أو التجليات. فنحن نرفض مبدأ الاستعمار بكل تبريراته ونظرياته، كما أننا نرفض تغليب القيم المادية الجوفاء على قيم الإنسان والعدالة والحرية والمساواة وما أشبه.

إننا وعبر تاريخنا المجيد كان لدينا مشاريع مقاومة لهذه الأسس والتجليات المنحرفة. فتشكلت في كل بقاع العالم الإسلامي حركات وتيارات واجهت المستعمر وطردته من ديارنا، ومشاريع للتحرر من ربقة السيطرة والهيمنة المادية والثقافية التي تفرضها علينا قوى الحضارة المادية الحديثة.

إن المشروع الإسلامي الحضاري ليس مشروعاً مغلقاً ومقفلاً لا يقبل التعايش والتنوع، بل هو مشروع مفتوح على كل الإمكانات والطاقات الإنسانية والمنجزات التقنية والعلمية، مشروع يؤمن بالتفاعل والانفتاح على الآخر كثابتة من ثوابت منهجه وركيزة من ركائز مسيرته. إنه مشروع يجمع ولا يفرق، يوحد ولا يشتت، يحترم الطاقات والكفاءات ولا ينفيها أو يتجاهلها. مشروع مسكون بالامتداد والانتشار ودعوة الناس جميعاً إلى الخير والهداية.

إنه مشروع يؤمن بضرورة التطوير والتجديد والإبداع، ولا يعتبر نفسه أقنوماً جامداً لا حياة فيه ولا تطور، إلا أنه يرى أن شرط التطوير والتجديد والإبداع يكمن في الانطلاق من الأصالة والهوية. وبالتالي فإن التفاعل ليس ذوباناً في الآخر، وإنما هو امتداد واكتشاف مكانة الذات الكامنة، وصياغة نوعية لقوانين التواصل والاتصال مع الآخر الحضاري. التفاعل هو الموازنة الفذة بين الضرورة والحاجة.

٣- تأسيس خطاب حضاري منبثق من قيمنا وأصالتنا ينسجم والتعاطي مع الآخر الحضاري. والجدير بالذكر هنا أننا حينما ننادي بالتفاعل كنظرية وموقف للتعاطي مع الحضارة الحديثة، نقصد بذلك التفاعل مع نتائج ومكاسب الحضارة لا مع أسسها ومبانيها الفكرية والفلسفية.

إذاً التفاعل هو فعل إيجابي يمارسه الإنسان المسلم لصالح دينه وأمته. فهمزة الوصل المقترحة التي تربطنا بالحضارة الحديثة هي التفاعل لا الانسحاق والذوبان في المنظومة

الحضارية المعاصرة. وهذا هو خيارنا المستقبلي إذا أردنا أن نحافظ على هويتنا الذاتية ونعيش في العصر الحديث. لننطلق إذاً من التفاعل لا الانبهار في التعاطي مع الحضارة القائمة. فالتفاعل هو نظام الرؤية والمعرفة المقترح في التعاطي مع الحضارة الحديثة. والذي يؤكد أن الخيار الوحيد والسليم الذي ينبغي أن ننتهجه هو خيار التفاعل، هو أننا نعيش في فضاء معرفي هائل، استطاعت من خلاله الحضارة الحديثة أن تصل إلى مخادع نومنا، وفي كل جزئيات وتفاصيل حياتنا بحيث أضحى من الصعوبة بمكان الاستغناء بشكل فعلي عن منتجات الحضارة التقنية والتكنولوجية وغيرها من المنتجات.

إننا نرفض منطق النفي والإلغاء، ولا يمكننا أن نتبناه، وكذلك موقف القطيعة التامة من الحضارة الحديثة هو الوجه الآخر لمنطق النفي والإلغاء، لذلك نحن نرفضه ونتجاوزه.

«فالتفاعل هو وسيلة التواصل مع الآخر، وهو شرط الوثوب والنهضة، وبه تزداد مسيرة النهضة حيوية وديناميكية. فهو نقلة من اللافعل إلى الفعل، من الهامش إلى القلب، من المجرد إلى المحسوس، من الظلام إلى النور، من العدم إلى الوجود. لذلك كله فهو - التفاعل - سلاحنا وخيارنا الذي ينبغي أن نتبناه في زمن لا يرحم من يعيش وحده، ولا يمكنه أن يستغني عن غيره بدعوى الكمال أو ما أشبه. إنه زمن تتماهى فيه الحدود بمختلف أشكالها وأنواعها، زمن يَغرق الغافل والمنطوي في متاهاته ودهاليزه».[1]

إن الحل الحضاري الوحيد للأمة الإسلامية، للخروج من نفق التخلف والانحطاط، لا يأتي من الخارج شكلاً ومادة، بل هو من صميم الداخل الإسلامي. إذ أن مادة التغيير والتحويل الحضاري يجب إنتاجها من داخل الأمة وتاريخها وعقائدها لا من أعدائها.

---

(١) أحمد الجهيني: الإسلام والآخر، ص ١٤١.

ومن المؤكد أن الانبهار والتقليد الأعمى للنموذج الغربي في البناء الحضاري يجر في النهاية إلى الاقتداء والتمثل والسقوط فيه ولو بعد حين.

هذه العملية (التفاعل) هي التي تجسد الوعي بالذات دون استلاب، واعتراف الآخر دون الامتثال له..

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو: ما هي المنطلقات النظرية لموقف ونظرية التفاعل في التعاطي مع الشأن الحضاري الغربي؟.

أولاً: سيادة الذات الحضارية:

إن المواقف المتخذة من قبل الكثير من المدارس الفكرية والسياسية تجاه الغرب والحضارة الحديثة، هي مواقف لا تعكس حالة الاعتزاز بالذات الحضارية للأمة. بل هي تنطلق من أرضية معرفية مغايرة ومعادية للأرضية الإسلامية. لذلك فهي مواقف في إطار الغرب لا خارجه، بمعنى أن مؤداها الأخير هو الاندماج في الغرب والذوبان فيه. فالمشروع العلماني المطروح في الساحة العربية والإسلامية، ومن خلال تجارب عديدة هو مشروع غربي الانتماء والوجهة، ولا يؤدي إلا إلى الارتماء في أحضان الغرب. كما أن مشروع الانعزال والانكفاء على الذات يؤدي من الناحية العلمية إلى حالة من الازدواجية الرهيبة التي تصيب الإنسان، ظاهراً وفي العلن يمقت الغرب ومنتجاته وإنجازاته، وفي الخفاء والسر يلهث وراء اقتناء آخر إنتاج الغرب وتقنيته!!

كما أن غياب نظرية التفاعل في علاقتنا بالآخر الحضاري، هو الذي يجعل الغرب في حاضرنا مقياساً نقيس من خلاله أوضاعنا وأحوالنا وبالتالي فالغرب (هو الذات الفاعلة) المؤثرة ونحن: (الموضوع المنفعل).

وبالتالي فإن هزيمتنا تجاه ذاتنا لعدم قدرتنا على صنع حالة التفاعل مع المحيط

الحضاري الذي نعيشه هي التي هيأت الأرضية ووفرت الأسباب للهزيمة الحضارية تجاه الغير والآخر. لأن الغرب لن يكون بعبعاً لولا أننا نرى أنفسنا صغاراً في مواجهته وعاجزين على التفاعل مع أدواته الحضارية..

ثانياً: حضور الإسلام:

أين الطريق أو ما هو السبيل إلى الخروج من ربقة التخلف الحضاري، والانطلاق في رحاب البناء والتطور والتقدم؟.

بادئ ذي بدء ينبغي أن نؤكد أن الحلول التي قدمتها لنا العقلية الغربية في مختلف شؤون حياتنا، لم تؤد إلا إلى المزيد من التخلف والانسحاق أمام الغول الحضاري الحديث. فالفشل الذريع هو حال الحلول الغربية لواقعنا العربي والإسلامي. فلم تستطع أوروبا أن تعطينا في الحقيقة سوى منهج واضح لتفتيت مكوناتنا الاجتماعية وتمزيق أوصالها. جاء ذلك على مستوى بدائلها الرأسمالية والاشتراكية على نحو سواء.. والمسألة هنا ليست راجعة إلى طريقة فهمنا الاختيارات الأوروبية وعجزنا الذاتي عن ملاءمة واقعنا بها، ولكنها ترجع إلى أن الاختيارات الأوروبية نفسها قد جاءت صادرة عن فلسفة الصراع أصلاً وممنهجة له تاريخياً واجتماعياً واقتصادياً[1]، فالدواء الغربي لواقعنا ليس في حقيقته سوى مجموعة أساليب وتكتيكات لتبديد طاقات الأمة، وبعثرة جهودها في أمور لا تؤدي إلى الانعتاق من الآخر الحضاري، بل تكرس التبعية وتداعياتها المختلفة، والسبب في ذلك أن الحلول الغربية خاطبت عقله دون أن تخاطب وجدانه وروحه، وقدمت له برامج اجتماعية دون أن تقدم له أجوبة مقنعة حول أسئلته الوجودية وأحواله الشخصية

---

(١) محمد أبو القاسم حاج محمد: العالمية الإسلامية الثانية، دار الشروق، مصر ٢٠٠٢م، ص٢١٠.

وعلاقاته الأسرية والتزاماته الأخلاقية. وألزمته بالنضال الخارجي دون أن يكون لها سلطان على خلجات نفسه وأشواق روحه[1].

فالمحصلة النهائية لكل ذلك هو فشل النظريات الغربية في انتشال الأمة من واقع التخلف الحضاري. والسبيل الوحيد للخروج من نفق التخلف وظلمة الانحطاط هو (حضور الإسلام) في كل جوانب وحقول حياتنا.

إذ أن كل التجارب على مدى العقود الماضية أثبتت بشكل جلي أنه لا تقدم ولا تطور ولا خروج من ربقة التخلف في ظل غياب وتغييب الإسلام، لأن الأيديولوجيات المستوردة إضافة إلى نقاط القصور الذاتية لا تمتلك القدرة في تعبئة طاقات الإنسان واستنفار همه ودفعها في المسار الإيجابي.

وهذا هو الذي دعا الكثير من المفكرين والكتاب إلى إعادة النظر في دور الإسلام في تحريك الشعوب، واعتباره عاملاً رئيسياً في سبيل الخروج من واقع التخلف والانحطاط.

فهذا الدكتور (محمد جسوس) الماركسي المغربي المعروف يقول: (إن الإسلام كان ولا يزال يمثل مركز الشرعية الأول والأخير بالنسبة للأغلبية الساحقة من الجماهير العربية التي نتعامل معها).

وإن كل الطروحات الأيديولوجية الأخرى لم تتمكن من الحصول على بصيص من الوفاء والالتزام الذي أمكن الوصول إليه عن طريق الإسلام[2].

كل هذا يؤكد أن عملية البناء الحضاري انطلاقاً من الإسلام ونظمه المختلفة عملية تلقائية لا تعسف فيها ولا تكلف ولا قسر. لأن الإسلام هو الأيديولوجية

---

(١) وليد عبدالستار هنداوي: حركات التغيير وأزمة الإيديولوجيات، مجلة منار الإسلام. عدد (١٠). ٢٠٠٦م.

(٢) انظر: محمد جسوس: مجلة المنعطف، (المغرب) عدد (٣-٤) - ١٩٩٢م.

الكفيلة بتحقيق متطلبات الإنسان المادية والمعنوية، ويتوافق وينسجم مع فطرة الإنسان وحقائقه الأولى.

يشير إلى هذه المسألة السيد (محمد باقر الصدر) بقوله: إن عملية البناء لن تبدأ من الصفر لأنها ليست غريبة عن الأمة، بل لها جذور تاريخية ونفسية ومرتكزات فكرية، بينما أي عملية أخرى تنقل مناهجها بصورة مصطنعة أو مهذبة من وراء البحار لكي تطبق على العالم الإسلامي سوف تضطر إلى الابتداء من الصفر والامتداد بدون جذور[1].

ولقد تأكد لنا أن المجتمع الإسلامي لم تفلح في تحريكه من عثاره وإيقاظه من نومه، أي من الأيديولوجيات الداخلية التي زادته وهنا على وهن، وأفسدت فطرته وزرعت العوائق والأشواك في طريق عمليات التغيير الموضوعية، التي تسعى لإحداثها الحركات التغييرية صاحبة الشرعة في ذلك. ولقد ثبت لكل من له عقل راجح أن الحركات التغييرية صاحبة الشرعية، والمخولة لإحداث البعث الحضاري هي التي تتخذ الإسلام منهجاً عن اقتناع جازم ويقين راسخ، بأنه هو وحده الحل والخلاص ولا حل ولا خلاص من دونه[2].

● **وحضور الإسلام يتمثل في الآتي:**

١ - إزالة حالة الازدواجية التي يعيشها الإنسان المسلم، وإرجاع حالة التجانس إلى سلوكه، وبهذا نزيل ونرفع بعض العوائق التي تعيق تأثير الإسلام في واقع الإنسان. لأننا بفعل حالة مركب النقص الذي نعيشه فيما يرتبط وعلاقتنا بالحضارة الحديثة، أصبحنا

---

(١) محمد باقر الصدر: منابع القدرة في الدولة الإسلامية، دار التعارف بيروت ١٩٨٤، ص٣٥.

(٢) محمد جسوس: مجلة المنعطف: (المغرب) - عدد (٣-٤) - ١٩٩٢ ص٥٠.

نعيش الازدواجية والتأرجح في كل الأمور والأشياء. فلا نحن أبقينا صِلاتنا المختلفة المنسجمة مع الماضي تحت مظلة السنن الكونية للتطوير، في ميزان المنطق والعلم، ولا نحن حققنا شيئاً من أمنيات اللحاق بنهضة تشبه نهضة الآخرين، بل بقينا نتهارج ونتخاصم في سجن هذا المنعطف الثقيل[1].

٢- تصحيح المفاهيم: إذ أن الكثير من القيم والمفاهيم أصبحت تفهم بشكل مقلوب ومعكوس. بحيث تحول الصبر إلى حالة من الخنوع والخضوع، لا قدرة على تحمل الصعاب، وبناء الحياة وفق هدى الشريعة.

وقد قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وتحقيق هذه الأمور يؤدي إلى تحقيق تغير يمتد إلى المساحات كافة. وسائر المكونات النفسية الأساسية العقلية والروحية والجسدية وكل العلاقات والبُنَى الداخلية مع الذات ومع الآخرين، والتي تمكن الإنسان المسلم والجماعة المسلمة من مواجهة حركة التاريخ[2]. وبهذا ينبغي أن نسعى بجد وحكمة إلى طرد جميع العناصر المضادة للإسلام روحاً ونصاً من واقعنا المعاش. حتى يكون حضور الإسلام فينا (أفراداً وجماعات)، حضوراً فاعلاً ومؤثراً على مستوى العقل والنظر ومستوى الفعل والتطبيق. فحضور الإسلام في مختلف جوانب حياتنا يقتضي منا التفاعل مع الحضارة الحديثة حتى نتمكن من تحقيق الشهود الحضاري في العالم.

---

(١) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: من المسؤول عن تخلف المسلمين؟، دار الفكر، دمشق، ص٤٨-٤٩.

(٢) عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، دار الكتاب الإسلامي، إيران ص١٤٠.

ثالثاً: المشاركة الحضارية:

حين نقرأ تاريخ التطور التاريخي للحضارة المعاصرة، نكتشف أن هذه الحضارة بمكوناتها المتعددة، هي من صنع البشرية جمعاء. بحيث أن عملية التراكم على مستوى الحضارات، هو الذي أوصل البشرية إلى هذا المستوى العلمي والحضاري المعاصر. فالحضارة الحديثة ليست من صنع الغرب وحده، بل هي من صنع جميع الأمم والحضارات. أو ليست الحضارة تواصلاً إنسانياً من جيل لآخر. لذلك فليس من المعقول أو الحكمة أن تقاطع أمة من الأمم هذه الحضارة، وتمتنع عن الاستفادة من إنجازاتها ومكاسبها. لهذا فإن الموقف المنطقي، الذي ينبغي أن نتخذه تجاه الحضارة الحديثة، هو موقف التفاعل بحيث نستفيد من مكاسبها دون أن نتأثر بمساوئها، عن طريق التعامل معها من موقع التفاعل لا الانبهار والقبول المطلق بها..

وعلى هذا فإن الحضارة الراهنة ليست هي الآخر من حيث أنها حضارة، أن الآخر فيها بالنسبة إلينا هو الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرأسمالية الاحتكارية والعنصرية والفاشية والنازية والاستغلال والعدوان، ومحاولات الاحتواء والسيطرة. أما من حيث كونها حضارة، أي علم وعقلانية وإبداع تكنولوجي ومناهج بحث وفلسفة وأدب وفن وثقافة وهموم مشتركة، وتطلع إلى الأمن والعدل والتقدم والسلام، فليست هي الآخر، بل هي بعد من أبعاد الأنا، بل هي الأنا الواقع والأنا الممكن، بل الأنا الضروري.

إن الأنا موجود في هذا الآخر الحضاري واقعاً تاريخياً وإمكاناً وضرورة مستقبلية. والآخر موجود في الأنا بما يضفيه إلى عصرنا من علم وفكر وفلسفة وتكنولوجيا وثقافة بشكل عام. ولهذا فلا تعارض بين الأنا والآخر من حيث جوهر الحضارة المعاصرة. وإن

يكن هناك اختلاف وتنوع من حيث الطابع القومي الخاص داخل هذه الحضارة، ومن حيث حدود المشاركة فيها[1].

فالشراكة الحضارية تقتضي اتخاذ موقف التفاعل لا القطيعة أو الذوبان في الآخر. ولهذا نجد أن سيرة المسلمين ومواقفهم تجاه الحضارات المعاصرة لهم، كان موقف التفاعل والإضافة والتقويم لا موقف الدونية والتبعية والانبهار.

ويشير إلى هذه المسألة الكاتب (توفيق الطويل) بقوله: (إن المسلمين لم يكونوا مجرد نقلة بل كانوا في شروحهم للنصوص التي ينقلونها يضيفون إليها من نتائج خبراتهم وخاصة تأملاتهم، ويبدون من أصالة الفكر ما شهد به المنصفون من المستشرقين. أفادوا مما أخذوا ولكنهم أضافوا وزادوا حتى في المنطق اليوناني، مع أن المنطق بالذات كان له أثره في العلوم العربية وهو ما بدا واضحاً في أساليب المتكلمين وتعبيرات الفقهاء، لكنهم تناولوا المنطق اليوناني بالنقد والتحليل. ومن ثم فإن كان المسلمون قد نقلوا عن اليونان فإنهم أضافوا وزادوا وابتكروا، لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الثقافة اليونانية وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية. وظهرت ابتكاراتهم من خلال توفيقهم بين الشريعة والحكمة، ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى ما تحقق من تقدم وإبداع في مجال الطب العربي، في وقت نفرت فيه السلطات الكنسية في أوروبا من علاج الأمراض التي أنزلها الله بعباده، ومن استخدام الجراحة في تغيير خلق الله)[2].

* أما ما يوفره لنا منظور التفاعل على الصعيد الحضاري العام، فيمكن تحديده في النقاط التالية:

---

(١) محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، مجلة قضايا فكرية، العدد ٣١١، ص ١٤٠.

(٢) توفيق الطويل،حقائق في تراثنا العربي الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٨٧ ص ٧٥.

١- إبراز التناقض الحقيقي والواقعي من الآخر الحضاري، لأن موقف الانغلاق أو الذوبان في الحضارة الحديثة، يجعلنا نتوه في تحديد البوصلة السليمة في تحديد ما نتفق ونشترك فيه مع هذه الحضارة، وما نختلف فيه معها. مما يجعل بناءنا النظري هشاً في هذا الإطار.

بينما عملية التفاعل توفر لنا الأرضية المناسبة، والإطار المعرفي السليم في تحديد جوهر الخلاف والتناقض مع الحضارة الحديثة..

- **واستطراداً نقول:**

إن خلافنا مع الغرب، وتناقضنا معه، أساسه معرفي -فلسفي- ثقافي، وهذا التناقض المذكور لا يمنع التفاعل ضمن الشروط المحددة لذلك. لأن التفاعل هو سعي دائم وحثيث نحو التقدم والإبداع والتجدد ورفض قاطع وصارم للوصول إلى الجمود والتقليد والانغلاق.

٢- توفر الإطار المرجعي والمنهجي في التعاطي مع الحضارة الحديثة، لأن التفاعل هو وليدُ المخزونِ العقدي والثقافي، الذي يمتلكه الإنسان المسلم. لذلك فإن عملية التفاعل ليست عشوائية، وإنما تأتي استجابة لمنظومة قيمية، توجه فعل الإنسان المسلم وترشده نحو الخير، وتحقيق قيم الفضيلة في الأرض.

وبهذا فإن العمل الحقيقي والأساسي الذي يفعله منظور التفاعل، أنه ينطلق من ركائز معرفية إسلامية في التعاطي مع الغرب. وبهذا فهو يمتلك منظاراً واضحاً من خلاله يمارس عملية التقويم والاختيار. فالتفاعل هو الكفيل بجعلنا نستفيد من مكاسب الحضارة دون أن نفقد هويتنا وأصالتنا.

٣- يساعد على تصحيح الرؤية لدى الغرب عن الإسلام، مما يولد الحاجة مستقبلاً لمعرفة حقائق الإنسان وثقافته بشكل موضوعي.

٤- إن عمليات الإبداع والتطور في كل المجتمعات الإنسانية، كانت وليدة ظروف

التفاعل وتداعياته. ولم يسجل لنا التاريخ تطوراً وإبداعاً في غير هذه الظروف. فلا إبداع معرفي واجتماعي وثقافي في إطار التقليد والجمود، كما أنه لا تقدم أو امتلاك ناصية العلم والتقنية في إطار الانسلاخ والاستلاب والقطيعة التامة والشاملة مع الذاكرة الحضارية للأمة.

وبهذا فإن التفاعل هو عبارة عن عملية التجديد الذاتي، الذي تحدثه الأمة باستمرار الاعتماد على إسلامها وعقيدتها، وإدراكها السليم والدقيق للظروف المحيطة بها. إنه التجديد الذي ينطلق من أرض الإسلام، لا من أرض الغير، وهو تجديد وتفاعل ينسجم ومنطق العقيدة والتاريخ. فلا سبيل إلى حماية خصوصياتنا الحضارية، إلا بالتسلح بالتفاعل الفعال، وهو تعبير عن إنجاز إنساني عظيم يجب حمايته وتطويره وتطويعه بما يخدم البشرية جمعاء.

فالتفاعل هو مشروع مفتوح على المستقبل، نطوره وننميه بالمعارف والممارسات والخبرات المتراكمة عبر الأجيال. وبهذا يصبح التفاعل في وسط المجتمعات الإسلامية. مع العصر ومكاسبه ومنجزاته.. فلذلك باختصار يكون عن طريق ثورة ثقافية تحرر العقل المسلم من التقليد المذموم وجموده، وتبعيته للوافد. ثورة ثقافية تمكن العقل المسلم من الإلمام بالمعارف الحديثة. وإدراك العناصر الرئيسية والجوهرية في هذه المعارف بغية الانتفاع بها..

إن تحرير العقل المسلم من الجمود والتقليد المذموم، والتبعية للوافد، هي الخطوة الأولى نحو تحقيق عملية التفاعل المطلوبة في واقع مجتمعاتنا.

لذلك فنحن ندعو إلى خطاب يؤسس منهجاً للمثاقفة والتفاعل بين الأطراف الحضارية في المجتمع البشري كله، من دون إحساس أحد الأطراف بالوهن والتبعية والذيلية.

وإنما يكون حواراً علمياً - ثقافياً - حضارياً بعيداً عن ضغوطات السياسة ومصالح السياسيين.

فلتكن هناك مؤتمرات شعبية ونخبوية من جميع الأطراف الحضارية، بشرط قبولها بالحوار كطريق أمثل لتجاوز أزمات العالم ومشاكله. وتُناقش في أروقة هذه المؤتمرات جميع القضايا الأساسية المرتبطة بمستقبل البشرية، للتوصل إلى خطاب حضاري يتجاوز الوصف وهول الأزمة، ويدخل في أعماق المشكلة، ولتكن أهداف هذه المؤتمرات والملتقيات:

١- المعرفة المتبادلة.

٢- صياغة نموذج عملي يقبل التعايش الحضاري، على أساس الاحترام المتبادل. يبدأ من الفلسفة والعقائد، وانتهاءً بالثقافة ومنهج ونظام الحياة. ونفي كل عوامل رفض الآخر أو الاستعلاء عليه.

٣- بلورة المشاريع المشتركة.

إن من القضايا الأساسية التي لابد لنا من إدراكها، هي أن أحد عوامل إيقاف عملية الانهيار الحضاري الذي تعيشه البشرية، يكمن في تشجيع ودعم عقلاء وحكماء الغرب، الذين أدركوا خطورة المنهج المادي الذي تسير على هداه الحضارة الحديثة. فهؤلاء وأمثالهم ينبغي تشجيعهم والتحاور والتفاعل معهم، بغية توضيح النموذج الحضاري الإسلامي لهم، أو الاختيارات الكبرى التي ينشدها الإسلام في هذه الحياة.

فنحن أمام الأزمات الحضارية التي تعانيها البشرية اليوم، بحاجة إلى أمرين أساسيين: الحوار مع الذات لاستخراج مكامن القوة وإبرازها، وغربلة ذواتنا من الكثير من آثار عصور التخلف والانحطاط. إذ ثمة قضايا في ذواتنا تشكل كوابح مانعة من الانعتاق والتحرر، والسعي في رحاب الآفاق الواسعة.

إن الحوار مع الذات ومصارحتها، ينقيها من هذه الشوائب والجراثيم التي تعيق الحركة والعمل. وهذه الطريقة من التعامل مع الذات ستفتح العديد من الطرائق

والآفاق في مسيرة الإنسان. وعن طريقها نستطيع أن نؤصل لنموذج إنساني فريد، يقوم بواجباته ويلتزم بمسؤولياته. والحوار مع الآخر والدخول معه في عملية تفاعل إيجابية، غير خاضعة لمصالح سياسية أو ضغوطات اقتصادية، وإنما حوار من أجل المعرفة المتبادلة والفهم المشترك.

ونحن حينما نتحدث عن مقولة التفاعل وضرورته، لا نقصد بذلك التفاعل السياسي أو التعاطي الدبلوماسي مع قوى الحضارة الحديثة. وإنما نتحدث عن مقولة التفاعل مع الحضارة الحديثة بمؤسساتها المختلفة وبما تشكل من واقع حضاري عام.

وأخيراً:

إن المسلم حقاً هو الذي يكون ربيب تعاليم الوحي، ومنطق العقل والعلم، ومثالية الفضائل الإنسانية الخالدة.